مجلة
كلية الآداب

جامعة فاروق الاول



المجلد الخامس

١٩٤٩

تطلب هذه المجلة من مكتبة جامعة
فاروق الأول بالشاطبي
بالاسكندرية

مطابع رمسيس باسكندرية

مجلة كلية الآداب

جامعة فاروق الاول



المجلد الخامس

١٩٤٩

تطلب هذه المجلة من مكتبة جامعة
فاروق الأول بالشاطبى
بالاسكندرية

مطابع رمسيس باسكندرية

جامعة فاروق الأول

مجـلة كلية الآداب

المجلد الخامس 1949 | ١٩٤٩

موضوعات القسم العربى — صحيفة

صفحة قديمة من تاريخ مصر الحديث

قضيـــــة محاكمة سليمان الحلبى

(قاتل الجنرال كليبر وشركائه فى الجريمة)

مترجمة الى العربية عن كتاب Tab. de l'Egypte المطبوع فى باريس سنة ١٨٠٣ لمؤلفه A. G..... D

(مشفوعة ببعض التعليقات والتحقيقات)

محضر الاستجواب الأول

فى يوم تاريخه ٢٥ شهر بريريال Prairial (يونية) للعام الثامن من الجمهورية الفرنسية بمنزل قائد الفرقة داماس Damas الرئيس العام لاركان الحرب استحضر بواسطة احد ضباط الصف من قوة الادلاء ، رجل من أهل القطر منسوب اليه أنه قتل القائد العام كليبر ، وقد تعرف على هذا المتهم المواطن الفرنسى بروتان Protain المهندس الذى كان برفقة الجنرال وقت جناية القتل المذكورة والذى قد أصيب هو الآخر بعدة طعنات من خنجر ، كما أن المتهم المذكور قد لوحظ متتبعاً الجنرال من نقطة الجيزة ثم وجد مختبئاً فى الحديقة التى ارتكبت فيها الجناية وهى الحديقة التى وجد فيها أيضا (بنفس الموضع الذى اعتقل فيه المتهم) الخنجر الذى طعن به القائد وجملة أعمال تعلق المتهم .

وفى الحال شرع فى استجوابه بمعرفة قائد الفرقة مينو Général de Division Menou وهو أقدم القواد ومتولى القيادة فى القاهرة ، وقد حصل الاستجواب على يد المواطن براسيفيك Bracewick السكرتير الأول والمترجم باركان الحرب وصار تدوينه كما يأتى بمعرفة قوميسير الأوامر سارتلون Sartelon المعين لهذه المأمورية من قبل الجنرال مينو وقد سئل المتهم عن اسمه وعمره ومحل سكنه وصناعته فاجاب بأن اسمه سليمان من أهالى الشام وعمره ٢٤ سنة وصناعته كاتب عربى وسكنه كان قبلا فى حلب .

وسئل منذ كم من الوقت حضر الى القاهرة فاجاب بأن له فى القاهرة خمسة أشهر وانه حضر اليها مع قافلة كان يقودها شيخ العرب سليمان البريجى

وسئل عن ديانته فقال الاسلام وأنه سبق أن عاش فى القاهرة ثلاث سنوات وفى مكة والمدينة ثلاث سنوات أخرى

وسئل هل يعرف الصدر الاعظم وهل رآه فى المدة الاخيرة فأجاب أن بدويا مثله لايعرف الصدر الاعظم

وسئل عن معارفه فى القاهرة فأجاب بأن لامعارف له ولكنه كثيراً مايتواجد بجوار الجامع الكبير المسمى بجامع الازهر ، وأنه معروف لأناس كثيرين وأن كثيرين أيضاً يشهدون بحسن سمعته

وسئل هل ذهب هذا الصباح الى الجيزه فأجاب نعم وأنه كان يبحث عن وظيفة كتابية ولكنه لم يجد

وسئل من هم الاشخاص الذين كتب اليهم فى اليوم السابق فأجاب أنهم جميعاً سافروا

فسئل عن تعليل أنهم جميعا سافروا وأنه لايعرفهم . فأجاب أنه لم يكن يعرف الاشخاص الذين كتب اليهم وأن من المستحيل أن يتذكر اسماءهم

فسئل عن آخر واحد كتب اليه فقال ان اسمه محمد مغربى السويسى بائع عرق سوس وأنه لم يكتب لأى شخص فى الجيزة

وأعيد سؤاله عن الغرض من ذهابه الى الجيزة فأعاد أنه ذهب للبحث عن وظيفة كتابية

وسئل كيف أنه ضبط فى حديقة القائد العام فقال أنه لم يضبط بالحديقة ولكن بالطريق العام

وقيل له انه لايقول الحقيقة لأن أدلاء الجنرال قد ضبطوه فى الحديقة التى كان مختبئا بها كما وجدوا بها الخنجر (الذى عرض عليه) ، فقال انه حقيقة كان بالحديقة

ولكنه لم يكن مختبئا بها بل كان جالسا لأن الخيالة كانو حارسين لجميع المسالك ولم يكن فى استطاعته ان يذهب الى المدينة ، وأنه لم يكن لديه أى خنجر كما أنه يجهل ان كان هناك خنجر فى الحديقة

وسئل لماذا تتبع القائد العام منذ الصباح فقال ان ذلك كان لنوال الحظوة برؤيته.

وسئل هل يعرف غلالة من القماش الاخضر يبدو عليها أنها مكملة لغلالة أخرى مماثلة لها توجد فى ملابسه وقد وجدت بالحديقة فى الموضع الذى قتل فيه القائد العام فقال أنها ليست مملوكة له

وسئل اذا كان يعرف احدا فى الجيزة واين قضى الليل هناك فقال أنه لم يتكلم مع احد إلا بمناسبة مشترى بعض أشياء وأنه نام فى الجيزة فى احد المساجد

وقد بين له أن الأصابات التى فى رأسه تثبت أنه هو الذى قتل الجنرال خصوصا وأن المواطن بروتان الذى كان مع القتيل والذى تعرف عليه قد ضربه على رأسه ضربات اصابته بجروح فقال أنه لم يصب بجروح الا وقت القبض عليه

وسئل هل لم يتكلم هذا الصباح مع حسين كاشف والمماليك التابعين له فقال أنه لم يرهم ولم يتكلم معهم

وبما أن المتهم مسترسل فى الانكار فقد أمر الجنرال بضربه بالعصا حسب عوائد البلد فنفذ الأمر فى الحال الى أن قال أنه مستعد لقول الحقيقة ولذلك فك كتافه وأعيد سؤاله كما يأتى :

سئل من أى وقت جاء الى القاهرة فقال أنه موجود بها منذ واحد وثلاثين يوما وأنه جاء اليها من غزة فى ستة أيام على ظهر جمل

وسئل عن سبب مجيئه فقال أنه جاء لكى يقتل القائدالعام

وسئل عمن ارسله لارتكاب جريمة القتل هذه فقال ان الذى ارسله هو أغا الانكشاريه ، وان الجنود المسلمين لما عادوا من مصر طلبوا فى حلب ارسال من

بقتل قائدعام الجنود الفرنسوية وأنه وعد بالحصول على المال وعلى رتب عسكرية

وسئل من هم الاشخاص الذين ارسل اليهم فى مصر وهل تحدث الى احد فى مشروعه وما الذى يعمله منذ وصوله الى القاهرة فقال أنه لم يرسل الى أى احد فى مصر وأنه يقيم فى الجامع الكبير وأنه رأى رؤساء الشريعة السيد محمد العديسى والسيد احمد الوالى وعبد الله الغزى والسيد عبد القاضى الغزى الذين يسكنون الجامع المذكور ، وأنهم نصحوا له بعدم الاقدام على جريمته لعدم امكان تحقق ذلك ولأنه سيقتل وأنه كان فى الامكان تكليف أشخاص غيره بهذه المأمورية . وقال أنه يتحدث اليهم كل يوم فى هذا الموضوع حتى صارحهم أمس بأن عزم نهائيا على تنفيذ قتل الجنرال وذهب الى الجيزة ليرى هل يمكنه النجاح فى ذلك وأنه تكلم مع نوتية فلوكة الجنرال مستفهما عن عادته فى الخروج وسألوه عما يريده من ذلك ولما أخبرهم بأنه يريد التكلم معه قالوا له أنه يذهب كل مساء الى الحديقة وأنه رأى الجنرال هذا الصباح ذاهبا الى المقياس ثم الى المدينة وأنه تتبعه حتى قتله

وقد ختم هذا الاستجواب الذى تولاه الجنرال مينو بحضور قواد الجيش ورجال أركان الحرب وتوقع عليه من الجنرال مينو وقوميسير الأوامر سارلتون فى يومه وشهره وسنته ومن جهة أخرى فبعد تلاوته على المتهم وقع عليه بأمضائه باللغة العربية وهذا هو بيان الامضاءات: قائد الفرقه مينو ، وقائد الفرقة فريانت وقائد الفرقة رينيه ، قائد الفرقة داماس الادجوتانت جنرال فالنتان، الادجوتانت جنرال موراند ، الادجوتانت جنرال مارتينيه ، ليروا ، سارتلون ، باتست سانتى لهوماكا (ترجمان) ، جان رنو مترجم القائد العام ، داميان براشيفيك

استجواب الثلاث الشيوخ المتهمين

فى يوم تاريخه ٢٥ بريريال للعام الثامن من الجمهورية الفرنسية وفى الساعة الثامنة مساء أحضر الى منزل الجنرال مينو ، قائد الجيش ، المدعوون السيد عبد الله الغزى ومحمد الغزى والسيد احمد الوالى ، وثلاثتهم متهمون بالتواطؤ على

قتل القائد العام كليبر .

وبأمر الجنرال مينو القاضى باستجوابهم حصل استجواب المذكورين بحضور الجنرالات العديدين الذين دعوا الى الحضور لهذا الغرض ، بواسطة المواطن لهوماكا المترجم :

بدىء باستجواب السيد عبد الله الغزى على انفراد كالآتى :

سئل عن اسمه وعمره وصناعته فقال ان اسمه السيد عبد الله الغزى من أهالى غزة وساكن بالقاهرة ويزاول فيها منذ عشر سنوات قراءة القرآن بالجامع الكبير المعروف بالجامع الازهر . ولا يعرف عمر نفسه وان كان يعتقد أنه يناهز الثلاثين

وسئل هل يسكن فى المسجد وهل يعرف الغرباء الذين يحضرون للمبيت فيه فقال انه يمكث ليلا ونهارا بالمسجد وانه يستطيع معرفة الغرباء الذين يلاحظ وجودهم

وسئل هل عرف رجالا قادمين من الشام من منذ شهر فقال أنه من خمسين يوما لم يعرف احداً قادما من الشام

فتوضح له ان رجلا قادما من جيش الوزير من ثلاثين يوما قرر أنه يعرفه ، وأنه إذن لايقول الحقيقة فقال أنه يشتغل بعمله فقط وأنه لم ير أحدا من الشام ولكنه سمع ان قافلة قدمت من جهة المشرق

فتوضح له ان هذا الرجل يؤكد أنه رآه وأنه أبلغه امورا هامة فقال أنه لم يره وأن هذا الرجل كاذب وأنه يقبل أن يموت اذا ثبت أنه لايقول الحقيقة

ثم استدعى الجنرال المدعو محمد الغزى المتهم أيضا بالاشتراك فى هذا القتل وحصل استجوابه كما يأتى:

سئل عن اسمه وعمره ومحل اقامته وصناعته فقال ان اسمه الشيخ محمد الغزى وعمره ٢٥ سنة تقريبا من أهالى غزة ومقيم بالقاهرة وصناعته تلاوة القرآن بالجامع الكبير المعروف بالازهر منذ خمس سنوات وانه لايخرج منه الالمشترى لوازم معيشته

وسئل هل يعرف الاغراب الذين يجيئون للسكنى بالجامع الكبير فقال أنه يحضر أحيانا بعض الاغراب ولكن البواب فقط هو الذى يتصل بهم أما هو فينام احيانا بالجامع واحيانا عند الشيخ الشرقاوى

وسئل هلا يعرف شخصا يدعى سليمان حضر من الشام منذ نحو شهر فقال أنه لايعرفه وانه لايمكنه أن يرى جميع الذين يحضرون لأن الجامع كبير

فسئل أن يقرر ماذا قال له سليمان لأن الاخير قد اكد أنه تكلم معه بالجامع فقال أنه يعرفه منذ ثلاث سنوات ويعلم أنه كان قد سافر الى مكه ولكنه من ذلك الوقت لم يره فاذا كان قد رجع فبغير علمه

وسئل هل السيد عبد الله الغزى قد تعرف به فاجاب ايضا نعم

ووضح له أن من المؤكد أنه تكلم مع سليمان بالامس مدة طويلة وتوجد أدلة على ذلك فقال أن هذا صحيح

فسئل لماذا بدأ بالقول بأنه لم يره فقال أنه لايظن أنه قال ذلك وأن المترجمين اخطأوا فى نقل كلامه

وسئل هل لم يتداول معه سليمان فى عمل اجرامى للغاية ويؤيد صحة ذلك ما عرف من أنه حاول أن يحمله على العدول عنه فقال أنه لايعرف شيئاً من ذلك ولا يعرف إلا ان سليمان رحل الى القاهرة عدة مرات وأنه الآن فيها منذ شهر

ووضح له أنه توجد براهين تثبت ان سليمان المذكور أخبره بأنه يريد قتل القائد العام وأنه اراد أن يرجعه عن هذا العزم فقال أنه لم يكلمه فى هذا الشأن وأنه بالامس فقط قال له أنه مسافر وأنه لن يعود

ثم استدعى السيد عبد الله الغزى من جديد لأعادة استجوابه كما يأتى :

سئل لماذا قال أنه لايعرف سليمان الحلبى مع ان الواقع انه قد قامت البراهين على انه منذ ٣١ يوماً قد رآه مرات عديدة وأنه تكلم معه كل يوم فقال ان الصحيح هو أنه لايعرفه

وسئل هل لايعرف المدعو محمد الغزى الذى يشتغل مثله بتلاوة القرآن فى الجامع الكبير المسمى بالازهر فأجاب نعم

وحصلت مواجهة الشيخين المذكورين كما يأتى :

سئل محمد الغزى هل لم يقل ان السيد عبد الله يعرف سليمان فقال نعم

وسئل السيد عبد الله لماذا أنكر الحقيقة فقال ان السؤال لم يوضح له كما يجب والان وقد توضح له أن المقصود هو سليمان الحلبى فهو يقرر أنه يعرفه

ووضح له أنه قد تأيد أنه قابل سليمان عدة مرات وأنه تكلم معه كثيراً فقال أنه لم يره من ثلاث أيام

وسئل هل لم يحاول منعه من قتل القائد العام فقال أنه لم يتكلم معه قط عن هذا المشروع وانه اذا كان تكلم معه لحاول منعه بكامل مقدوره

وسئل لماذا لايقول الحقيقة مادام أنها مؤيدة بالادلة فقال ان هذا غير ممكن لانه لم ير سليمان الا لتبادل السلام عند المقابلة

وسئل هل لم يخبره سليمان بما حضر الى مصر من اجله فقال انه لم يخبره بذلك قط

واعيد المتهمان واستحضر السيد احمد الوالى لأجل استجوابه عن الامور الاتية :

سئل عن اسمه وعمره ومحل سكنه وصناعته فقال ان اسمه السيد احمد الوالى من أهالى غزة وصناعته تلاوة القرآن بالجامع الكبير منذ نحو عشر سنوات ولا يعرف عمر نفسه

وسئل هل يعرف الغرباء الذين يفدون على الجامع فقال ان صناعته هى تلاوة القرآن وأنه لايشتغل بالغرباء

فتوضح له أن غرباء ممن حضروا منذ بعض الوقت يقولون أنهم رأوه فى الجامع فقال انه لم ير أحدا

وسئل هل لم ير رجلا حضر من الشام مبعوثا من قبل الصدر الأعظم وهذا الرجل يؤكد أنه يعرفه فقال لاوطلب استحضارهذا الرجل ومواجهته به

فسئل هل لايعرف رجلا يدعى سليمان الحلبي فقال أنه يعرف رجلا يدعى سليمان الذى كان يدرس عند احد الافندية وأن هذا الرجل كان متقدما بطلب للالتحاق بالمساجد وأنه أخبره أنه من حلب وأنه رآه منذ عشرين يوماولم يقابله بعد ذلك وأنه قال له ان الوزير (الصدر الاعظم) موجود فى يافا وان مرتبات جنوده رديئة حتى أنهم كانوا يتركونه

وسئل هل ليس هو الذى يشمل سليمان بحمايته كما يدعى الاخير فقال أنه لا يعرف سليمان المعرفة الكافية لكى يتولى أمره

وسئل هل الشخصان الآخران المتهمان ليسا من معارف سليمان وهل ثلاثتهم لم يتكلموا مع سليمان من وقت قريب وخصوصاً بالامس فقال لا ولكنه مع ذلك يعرف أن سليمان حضر الى المسجد للدعاء به وأنه وزع فيه أوراقا تحتوى على التعبير عن ثقته بالخالق واعتماده عليه

وسئل هل لم يحضر سليمان بالامس ايضا لتوزيع هذه الاوراق فقال انه لايعرف

وسئل هل لم يرغب فى حمل سليمان على الرجوع عن عمل جنائى فقال ان سليمان لم يكلمه قط فى شيء من هذا ، ولكنه قال له أنه يرغب فى اتيان أعمال جنونية فعمل على صرفه عنها

فسئل ما هى الأعمال الجنونية التى حدثه سليمان فى شأنها فقال إنه أخبره انه يرغب فى الدخول فى الحرب الدينية وإن هذا يشتمل على قتل كافر ولكنه لم يذكر اسم أى شخص . فأراد صرفه عن ذلك قائلا إن الله هو الذى منح الحكم للفرنسويين وإن شيئاً فى الوجود لايحول دون حكمهم للبلاد

واعيد المتهم وختم هذا الاستجواب بحضور القواد المجتمعين وصار التوقيع عليه من الجنرال مينو وكذلك من قوميسير الاوامر سارلتون الذى تولى تدوين

صيغة الاستجواب المذكور بناء على تعيينه لهذا الغرض بأمر الجنرال مينو وتلى المحضر على المتهمين فصمموا على اقوالهم وامضوا

القاهرة فى يومه وشهره وسنته وتلى ذلك ثلاث إمضاءات بالعربية

توقيع : الجنرال مينو   توقيع : سارلتلون ، ا. سانتى لهوماكا الترجمان

محضر بتأليف مجلس

العام الثامن من الجمهورية الفرنسية ويوم ٢٦ بريريال وبناء على الأمر الصادر فى تاريخه من قائد الفرقة مينو قومندان جيش المشرق بالانابة حصل اجتماع بمنزل قائد الفرقة الجنرال رينيه من قائد البلوك روبان Robin وضابط البحر لوروا Le Roy والادجوتانت جنرال مارتينيه الاخير نيابة عن قائدالفرقةفريانت كامر الجنرال مينو والادجوتانت جنرال موراند وقومندان بلوك البيادة جوجيت Goguet وقومندان بلوك المدفعية فور Faure وقائد بلوك اركان الحرب برتراند Bertrand وقوميسير الحربية رينيه وقوميسيرالاوامرساتلون بصفة مقرر والقوميسير لوبر Le Père ممثلا للسلطة التنفيذية وذلك بهيئةمجلس للنظر نهائيا فى قضية القتل الذى حصل أمس وكان المجنى عليه فيه شخص القائد العام كليبر ، وبانعقادهذا المجلس تحت رئاسة الجنرال رينيه بدىء بتلاوة الامر الصادر من الجنرال مينو كما هو مذكور أعلاه وبناء على منطوق البند الثالث من الأمر المشار اليه صار تعيين قوميسير الحربية بينيه Pinet مسجلا للاجراءات فحلف اليمين وتولى مهمته .

وأجاز المجلس لقائد الفرقة رينيه والقوميسير سارتلون المقرر اصدار الأوامر اللازمة بالتطبيق للبند الرابع من الأمر باتخاذ اجراءات الاعتقال والحبس وعمل كل ماهو ضرورى لاكتشاف الجناة والشركاء فى جناية القتل المذكورة . كما أمر المجلس بايداع الخنجر الذى وجد مع المتهم وقت القبض عليه لدى امانة الدعوى لكى يعرض فى الزمان والمكان اللازمين كأداة اثبات. وأجل المجلس الجلسة الى الساعة الثامنة من صباح الغد ووقع على المحضر اعضاء المجلس والمسجل

إمضاءات : قوميسير الحرب من الدرجة الاولى رينيـه ، قائد البلوك أركان حـرب برتراند ، قائد المدفعية فور ، قائد نصف البلوك الثانى والعشرين مشاة خفيفة جوجيه ، ادجوتانت جنرال موراند ، ادجوتانت جنرال مارتينيه، ضابط البحر لوروا ، قائد البلوك روبان ، قائد الفرقة رينيه . المسجل بينيه

أقوال الشهود

فى تاريخه ٢٦ بريريال من العام الثامن للجمهورية الفرنسية أمامى أنا القوميسير الموقع أدناه المكلف بمقتضى الأمر الصادر من الجنرال مينو قائد الجيوش القيام بمهمة التقرير لدى المجلس المعين للنظر فى قضية قتلة القائد العام الجنرال كليبر ، حضر لابداء أقواله عن جريمة القتل المذكورة كما هو مدون بمعرفتى وبمعاونة المواطن بينيه المسجل المعين طبقاً للامر المشار اليه المدعو جوزيف بيران Joseph Perrin قائد مدفعيي الادلاء الذى قرر أنه هو والمواطن روبير قد اعتقلا التركى سليمان المتهم بقتل الجنرال وأنهما وجداه فى داخل حديقة الحمامات الفرنسويه Jardin des Bains Français المجاورة لحديقة اركان الحرب حيث كان مختبئا بين الجدران الصغيرة النصف المتهدمة وان هذه الجدران كانت ملطخة بالدم فى مواضع مختلفة ، وان سليمان المذكور كان أيضا ملطخا بالدم وانهما قبضا عليه فى هذه الحالة واضطرا لحمله على المشى أن يضرباه بالسيف عدة ضربات .

وقرر المدعو بيران المشار اليه أنه وجد بعد ساعة من الحادث خنجرا مخبوءاً فى داخل الارض فى نفس ذلك الموضع الذى اعتقل فيه سليمان وأنه سلمه لاركان الحرب وكان الخنجر المذكور ملطخا بالدم

وتليت عليه أقواله فقال أنه ليس لديه مايزيده عليها أو ينقصه منها وأمضى عليها وتوقع على المحضر منا ومن المسجل

وسمعت أيضا أقوال المواطن روبير الذى قرر أنه كان مشتغلا بالبحث عن قاتل الجنرال فذهب الى الحديقة المجاورة لحديقة أركان الحرب والتابعة لمبنى

الحمامات الفرنسوية وانه بالاشتراك مع زميله بيران وجدا المدعو سليمان الحلبي مختبئا فى ركن من جدران مهدمة وانه كان ملطخا بالدماء عارى الرأس إلا من غلالة من قماش اخضر ومن هيئة ملابسه تعرف عليه كقاتل الجنرال ، وان الجدران التى مشى تحتها كانت هى الاخرى ملطخة بالدماء ، وان المتهم كان فى حالة رعب . وانه بعد ذلك بساعة عثر هو مع زميله بيران فى نفس ذلك الموضع الذى كان المتهم مختبئا فيه على خنجر مملوء بالدم كان مخبأ فى داخل الارض

وتليت عليه أقواله فقال أنها قرينة الصحة ليس لديه ما يزيده عليها أو ينقصه منها وأمضى عليها وتوقع على المحضر منا ومن المسجل، تحريراً بالقاهرة فى يومه وشهره وسنته الامضاءات

انا القوميسير المقرر انتقلت فوراً الى مسكن المواطن پروتان حيث هو ملازم فراشه بسبب الجروح التى أصيب بها وأخذت أقواله كما يأتى :

جان كونستانتان پروتان مهندس معمارى عضو لجنة الفنون وعضو المجمع قرر أنه حينما كان يتنزه فى الدهليز الكبير لحديقة القيادة العامة المشرف على الميدان فى صحبة القائد العام خرج من مؤخرة الدهليز رجل يلبس الملابس التركية قادما من جهة البئر ذات العجلات الموجودة فى طرف الدهليز . وإذ كان على بضع خطوات من الجنرال ملتفتاً الى الجهة المعاكسة سمع الجنرال يصيح فى طلب الحراس فالتفت لمعرفة سبب ذلك فوجد الرجل المذكور مشتغلا بالاعتداء على الجنرال بواسطة طعنه بالخنجر عدة مرات ، وان الرجل طعنه هو أيضا بالخنجر المذكور طعنات عديدة فسقط على الارض مبتعدا بضع خطوات وانه لما سمع الجنرال يصيح من جديد اقترب منه فرأى الرجل يطعنه ثم انثنى عليه هو بطعنات أخرى فقد على اثرها وعيه ولا يعرف تفصيلات أخرى بيد أنه يعلم أنه رغم تكرار الصياح من جانب المعتدى عليهما بقيا بدون نجدة اكثر من ست دقائق

وتليت عليه أقواله فقال إنها قرينة الصحة وأنه يصر عليها دون زيادة أو نقص وتوقع على المحضر منى ومن المسجل امضاءات پروتان، سارتلون، بينيه

وبعد ان تمت التوقيعات المدونة بعاليه طلب الشاهد المواطن پروتان

أن يضيف الى اقواله أنه لما عرض عليه سليمان الحلبي المتهم بقتل القائد العام بعد ارتكاب الجريمة بلحظات قليلة تعرف عليه باعتباره نفس الشخص الذى ارتكب فى حديقة القيادة العامة جريمة طعن القائد العام بالخنجر طعنات أسقطته على الارض والذى ضربه هو (أى الشاهد) جملة ضربات بالعصا على رأسه لمحاولة الدفاع عن الجنرال حتى أصيب هو بعد ذلك بجملة طعنات من خنجر الجانى أدت به إلى فقدان وعيه .

وتليت هذه الاضافة على المواطن پروتان فقال انها قرينة الصحة وانه يصر عليها دون زيادة أو نقص وأمضى عليها معنا نحن والمسجل ، إمضاءات پروتان ، سارتلون ، بينيه



فى يوم تاريخه ٢٥ پريريال من العام الثامن للجمهورية الفرنسية انا الموقع ادناه المعين مقرراً للمجلس المؤلف لمحاكمة قتلة الجنرال كليبر قد استدعيت ياوران الجنرال المذكور واخذت اقوالهم بمساعدة المواطن بينيه مسجل المجلس وذلك كما يأتى :

المواطن فورتينيه ديفوج Fortuné Devougnes عمره ٤٥ سنة الملازم فى البلوك الثانى والعشرين القناصة الراكب ياور القائد العام كليبر قرر أنه فى يوم ٢٥ پريريال إذ كان يرافق القائد العام فى الزيارة التى قام بها لمركز القيادة بالقاهرة حيث كانت تجرى بأمره بعض الاصلاحات كان رجل يلبس عمامة خضراء ومعطفا رديئا لاينفك يمشى فى أثر الجنرال فى تجوله خلال الغرف ، وبدا لكل انسان انه أحد العمال فتركت له حرية المشى ذهاباً وجيئة . غير أنه لما اخترق الجنرال هذه الحديقة الى حديقة الجنرال داماس لاحظ الشاهد أن ذلك الرجل مازال يختلط بحاشية الجنرال فسأله عما يريد وتوصل الى طرده بمعرفة احد الخدم واختفى الرجل فعلا . وبعد ذلك بساعتين وقت أن قتل الجنرال شاهد الملازم ديفوج الى جانب المجنى عليه الرداء الذى كان الجانى قد تركه فاذا به نفس

الرداء الذى شاهده على الرجل الذى تكلم عنه وبعد ذلك بقليل استحضر شخص ملطخ بالدماء فاذا به نفس ذلك الرجل الذى كان قد طرده .

وتليت عليه أقواله فقال انها قرينة الصحة بغير زيادة او نقصان ووقع عليها معنا نحن والمسجل ؟ امضاءات ر. ديفوج ، سارتلون ، بينيه

اعادة استجواب سليمان الحلبى

فى يوم تاريخه ٢٦ بريريال من العام الثامن للجمهورية الفرنسية أنا الموقع أدناه قوميسير الأوامر القائم بأعمال المقرر لدى المجلس المشكل لمحاكمة قتلة القائد العام كليبر استحضرت أمامى المدعو سليمان الحلبى المتهم فى الجناية المذكورة لأعادة استجوابه عن الامور الآتية ، وذلك بمساعدة المواطن بينيه المعين مسجلا للدعوى بمعرفة المجلس ، وبواسطة المواطن براسيفيك السكرتير الاول المترجم للقائد العام .

فبأعادة استجواب المتهم عن الحوادث المترتبة على الجناية موضوع الدعوى قال انه قدم على ظهر جمل ضمن قافلة محملة بالصابون والدخان وان تلك القافلة مخافة الحضور مباشرة الى القاهرة ذهبت من فورها الى بلدة العياط بأقليم اصفيحلى (يقصد أطفيح) . ومن هناك ركب حمارا للحضور الى القاهرة وقد استأجر ذلك الحمار من فلاح لايعرفه · وقال انه كلف قتل الجنرال من احمد أغا ويس أغا ، من الانكشارية بمدينة حلب ، وأن هذين الاغاوين حذراه من الافضاء بمشروعه إلى أى انسان اعظم ماله من الدقة ، أوفد لهذه المأمورية لأنه يعرف القاهرة معرفة جيدة إذ سبق أن اقام بها ثلاث سنوات ،وقيل له أن يذهب الى الجامع الكبير ويحتاط لنفسه من حيث الوقت وكيفية العمل حتى لا يخطىء قتل الجنرال.

على أنه مع ذلك أفضى بمهمته الى الشيوخ الاربعة الذين ذكر أسماءهم لأنه بدون ذلك كان لايستطيع الحصول على قبولهم إضافته بالجامع،وقد كلمهم فى ذلك

يوميا فنهوه عنه قائلين ان هذا أمر مستحيل التنفيذ وهو لم يطلب اليهم مساعدته لأنهم أجبن من أن يفعلوا ذلك .

وقال أنه يوم عزم على تنفيذ جريمة القتل لم يجد من الشيوخ الاربعة سوى محمد الغزى فأخبره أنه ذاهب إلى الجيزة لهذا الغرض .

وقال انه كان وحده فى ارتكاب الجريمة ويرى أنه كان مجنونا والا لما حضر خصيصاً من غزة وان الاوراق التى وزعها فى الازهر لم تكن سوى آيات من القرآن إذ كانت عادة الفقهاء توزيع مثل هذه الأوراق بكثرة ، وانه لم يتلق نقوداً من أحد فى القاهرة لأن الاغاوين أعطياه النقود .

وقال ان الافندى الذى كان يدرس عنده يدعى مصطفى افندى ، وكان يذهب اليه عادة فى يومى الاثنين والخميس ولكنه لم يجرؤ على الافضاء اليه بمشروعه حتى لايفشى سره .

ولكنه أفضى بمشروعه الى الشيوخ الاربعة واخبرهم بعزمه على الجهاد فى سبيل الله .

وسئل أين كان وقت عودة الوزير من مصر فى أوائل شهر جرمنال (مارس) الفائت الموافق للشهر التركى (ذو القعدة) فأجاب بأنه كان فى بيت المقدس للقيام بفريضة الحج وانه كان هناك قبل ذلك أيضا وقت أن استولى الوزير على العريش .

وسئل أين تقابل مع احمد أغا الذى يقول انه حرضه على تلك الجريمة وفى أى يوم كان ذلك فقال أنه لما انهزم الوزير وارتد عن العريش الى غزة فى آخر شهر شوال أو اوائل ذى القعدة الذى يوافق شهر جرمنال من التاريخ الفرنسى كان احمد أغا مع الجيش التركى وقد كان محجوزاً فى غزة منذ سقوط العريش بأمر الوزير ثم نقل الاغا المذكور الى القدس بمنزل المتسلم أى محافظ المدينة وأنه هو أى المتهم كان أيضاً فى القدس فى ذلك الوقت وذهب لمقابلة احمد أغا فى اول يوم لوصوله لكى يشكو اليه أن أباه المدعو الحاج محمد امين

تاجر الزبد فى مدينة حلب يعانى اضطهاد ابراهيم باشا حاكم حلب خصوصاً وأن هذا الحاكم فرض عليه غرامة كبيرة قبل قيام الوزير من دمشق الى مصر فدفعها والده ولهذا التجأ سليمان الى حماية الاغا مخافة تكرر مثل هذا الاضطهاد وعاد سليمان الى الاغا فى الغداة فقال له الاخير أنه صديق لابراهيم باشا وانه سيساعده لديه اذا قبل أن يتعهد بقتل قائد الجيش الفرنسى ·

وفى أقوال سليمان انه فى اليومين الثالث والرابع تكررت هذه المحادثات بينه وبين احمد أغا الذى احاله وقتئذ على يس أغا الذى كان فى غزة لاعطائه مايلزمه وانه سافر من القدس بعد ذلك بثلاثة أو اربعة ايام قاصدا الى بلدة الخليل دون أن يحمل أى خطاب من احمد أغا لأن الاخير ارسل أحد خدمه الى غزة لاطلاع يس أغا على كل شيء

فسئل كم من الوقت مكث فى الخليل وقال انه مكث بها عشرين يوماً

وسئل لم أقام فى الخليل عشرين يوما وهل لم يكن لديه أى خطاب من أحد من الاغاوين فقال انه كان يخاف من الاعراب الذين كانوا يملأون الطرقات ولهذا انتظر مرور إحدى القوافل لمرافقتها الى غزة عند مؤخرة شهر ذى القعدة (التى توافق بداية شهر فلوريال من التاريخ الفرنسى)

وسئل عما فعله فى غزة وماذا قال له يس أغا فقال انه فى اليوم التالى لوصوله الى غزة ذهب الى الاغا الذى قال له إن لديه خبر المسألة التى جاء بسببها وأنزله فى الجامع الكبير ثم جاء اليه الاغا مرات عديدة للمباحثة معه بصفة سرية احيانا بالنهار واحيانا بالليل ووعده برفع الاضطهاد عن أبيه وان يشمله هو بحمايته فى جميع المناسبات وأعطاه اربعين قرشا تركيا قيمة كل منها اربعون بارة لمصاريف سفره وزوده بالتعليمات وسافر سليمان بعد عشرة ايام من وصوله على ظهر هجين فبلغ مصر فى ستة أيام كما سبق بيانه وكان سفره فى أوائل ذى الحجة (الموافق اواسط فلوريال من التاريخ الفرنسى) بحيث أنه حين أقدم على قتل الجنرال كان قدمضى

على وصوله واحد وثلاثون يوما .

وسئل هل يعرف الخنجر الملطخ بالدم الذى قتل به الجنرال فقال انه يعرفه وانه هو الذى اعتدى به على الجنرال .

وسئل من الذى أعطاه هذا الخنجر وهل أخذه من احد الاغاوين وعلى العموم كيف حصل عليه .

فقال ان احدا لم يعطه هذا الخنجر بل انه اشتراه فى سوق غزة بقصد استعماله فى قتل الجنرال وأنه أخذ أول سلاح عرض عليه

وسئل هل احمد أغا ويس أغا أو كلاهما تكلم معه عن الوزير الاكبر (الصدر الاعظم) لينال حمايته إذا هو قتل الجنرال فأجاب بالنفى وقال انهما فقط وعداه بحمايتهما الشخصية فى حالة نجاحه

وسئل هل أصدر الوزير منشوراً ضد الفرنسويين فيه الحض على قتلهم فقال أنه لايعلم شيئا عن ذلك ويعلم فقط أن الوزير ارسل يدعو طاهر باشا لمساعدة العصاة فى القاهرة وان هذا الباشا لماعادوجد العثمانيين منسحبين

وسئل هل هو الوحيد الذى كلف بهذه المأمورية فقال انه يعتقد ذلك وأنه الوحيد الذى أحاط بسر المسألة مع الاغاوين

وسئل ماهى الطريقة التى كان سيتبعها لأخطار الاغاوين بنفاذ الجريمة فقال أنه كان يجب عليه الرجوع اليهما أو ايفاد من يقوم بذلك فوراً

وقفل هذا الاستجواب بمعرفتى أنا المقرر الموقع أدناه وأمضى عليه المتهم بعد تلاوته عليه ، كما أمضى عليه المسجل والمترجم ؟

القاهرة فى يومه وشهره وسنته .   امضاءات   سارتلون ، داميان

براسيفيك بينيه المسجل

مواجهة المتهمين

فى يوم تاريخه ٢٦ بريريال من العام الثامن للجمهورية الفرنسية أناالقوميسير

المقرر لدى المجلس المؤلف لمحاكمة قتلة القائد العام كليبر قد استدعيت الشيخ محمد الغزى المتهم بالاشتراك فى هذه الجريمة لاعادة استجوابه ومواجهته بسليمان الحلبي المتهم كفاعل أصلى وشرعت فى ذينكما الاستجواب والمواجهة على الوجه الآنى ، بالاشتراك مع المواطن بينيه مسجل الدعوى

سئل الشيخ محمد الغزى هل يعرف المدعو سليمان الحلبي الموجود هنا فقال نعم

وسئل سليمان الحلبي هل يعرف المدعو محمد الغزى الموجود هنا فقال نعم

وسئل المدعو محمد الغزى هل سليمان الحلبي الموجود هنا لم يفض اليه قط منذ واحد وثلاثين يوما اى منذ وجوده بالقاهرة بمشروعه المتعلق بقتل القائد العام ، وهل لم يقل له أنه قدم من الشام لهذا الغرض من قبل احمد اغا ويس اغا ، وهل لم يتحدث معه فى ذلك كل يوم تقريبا وهل لم يقل له فى اليوم السابق لتنفيذ الجريمة انه ذاهب الى الجيزة لتنفيذ قتل الجنرال . فأجاب ان كل ذلك باطل ، وانهما حين تقابلا تبادلا السلام فقط وانه فى ليلة ذهابه الى الجيزة أحضر له ورقاً ومداداً وأخبره أنه لا يعود إلا فى اليوم التالى

فقيل له انه لا يقول الحقيقة لان سليمان الحاضر هنا يؤكد انه تكلم معه فى كل يوم وخصوصاً ليلة ذهابه الى الجيزة ، فى موضوع قتل الجنرال ، فقال ان هذا الرجل كذاب .

وسئل هل لايذهب للمبيت كثيراً عند الشيخ الشرقاوى وهل لم يبت هناك فى الايام الاخيرة فقال انه من وقت حضور الفرنسويين لم يبت عند الشيخ الشرقاوى وانه كان يفعل ذلك أحياناً من قبل

فقيل له انه لايقول الحقيقة لا، ا ماب بالامس عند التحقيق معه انه يذهب كثيراً للمبيت عند الشيخ الشرقاوى فأجاب ا يقل شيئاً من ذلك

وسئل المدعو سليمان هل يصر على التأكيد للشيخ محمد الحاضر هنا انه تحدث اليه كل يوم عن عزمه على قتل الجنرال وخصوصا فى ليلة تنفيذ المشروع فقال نعم وانه يقول الحقيقة وان الشيخ محمد الغزى واقع تحت تأثير الرعب

ولما أصر الشيخ محمد الغزى على الانكار رأيت من الملائم تلقاء البراهين القائمة أن أقرر أن يضرب بالعصا طبقاً للعادة المتبعة فى البلاد حتى يعترف بأسماء شركائه . وتنفذ القرار الى أن وعد بقول الحقيقة ففك وثاقه وأعيد سؤاله كما يأتى :

سئل هل أخبره سليمان بعزمه على قتل القائد العام فقال انه قال له عدة مرات انه قدم من غزة لأجل الجهاد فى سبيل الله ضد الفرنسويين المشركين . وانه نهاه عن ذلك مبيناً له ما لذلك من وخيم العاقبة وانه لم يخبره بعزمه على قتل الجنرال إلا ليلة ارتكاب الجريمة

وسئل لماذا لم يحضر للافضاء بما أخطره به سليمان فقال انه لم يكن قط ليصدق أن رجلا فى حالته يستطيع قتل القائد العام وأن يتوصل لما عجز عنه الوزير

وسئل هل لم يفض بما سمعه من سليمان لعدة أشخاص فى المدينة وخصوصا الشيخ الشرقاوى فقال انه لم يكلم أحداً فى ذلك وانه لم يكن ليفضى به لأحد حتى ولو قتلوه

وسئل هل يعلم بوجود أشخاص آخرين فى القاهرة مكلفين بقتل الفرنسويين وأين هم فقال انه لايعلم بشىء من ذلك وأن سليمان لم يخبره به قط

وسئل سليمان عن أسماء شركائه وأين هم فقال انه ليس له شركاء فى القاهرة وانه لايظن انه يوجد أحد خلافه لقتل الفرنسويين

وأعيد المدعو محمد الغزى فوراً الى السجن وأبقى سليمان لمواجهته بالسيد احمد الوالى الذى جىء به لهذا الغرض

سئل هل يعرف سليمان الحلبى الحاضر هنا فقال نعم

وسئل سليمان هل يعرف المدعو السيد احمد الوالى الحاضر هنا فقال نعم

وسئل السيد احمد الوالى هل أخبره سليمان بعزمه على قتل القائد العام خصوصا ليلة ارتكاب الجريمة فقال أن سليمان لدى وصوله منذ ثلاثين يوما تقريبا أخبره بأنه حضر للجهاد فى سبيل الله ضد المشركين وانه نهاه عن ذلك لكونه عملا غير صائب ولكن سليمان لم يخبره بعزمه على قتل القائد العام

وسئل سليمان هل لم يقل للسيد احمد الوالى بعزمه على قتل القائد العام وكم يوما قبل الجريمة كان ذلك فقال انه فى أول يوم لوصوله أخبره بأنه حضر للجهاد الدينى فلم يوافقه عليه وبعد ذلك بستة أيام أخبره بعزمه على قتل الجنرال ولم يكلمه فى الأمر بعد ذلك وكان لم يره منذ أربعة أيام وقت ارتكاب الجريمة

وتوضح للسيد احمد الوالى انه لم يقل الحقيقة حين أكد أن سليمان لم يفض اليه بعزمه على قتل الجنرال فقال الآن فقط بعد سماع كلامه أستطيع أن أتذكر أنه أخبرنى بذلك

وسئل لماذا لم يخطر بما أخبره به سليمان فقال ان ذلك لسببين أولهما انه كان يظن انه كاذب والثانى انه يستصغر شأنه لدرجة انه لم يكن يظنه قادراً على عمل كهذا

وسئل هل أخبره سليمان بوجود شركاء له وهل هو أى السيد احمد الوالى تكلم مع أحد فى ذلك خصوصاً مع شيخ الجامع الكبير الذى يجب عليه احاطته بكل ما يحدث فيه فقال ان سليمان لم يخبره قط بأن له شركاء وانه لم يتصور أن من واجبه أن يخطر شيخ الجامع بشىء وانه شخصياً لم يكلم أحداً فى هذا الشأن

وسئل هل يعلم بوجود أمر من القائد العام مقتضاه ضرورة الارشاد الى أى عثمانى يصل الى القاهرة فقال انه لايعلم بذلك

وسئل هل لم يسمح لسليمان بالمبيت فى الجامع لانه أخبره بقدومه لقتل الجنرال فقال لا لأن جميع المسلمين يمكنهم أن يبيتوا فى الجامع

وسئل سليمان هل لم يقل أنه كان لا يقبل فى الجامع اذا لم يخطر بسبب حضوره الى القاهرة فقال ان القادمين ملزمون بالاخطار عن سبب حضورهم ولكنه يقرر خدمة للحقيقة ان أحداً من المشايخ لم يوافقه على مشروعه

وأعيد السيد احمد الوالى الى السجن وأبقى سليمان لمواجهته بالسيد عبد الله الغزى الذى استحضر لهذا الغرض

سئل السيد عبد الله الغزى هل يعرف سليمان الحاضر هنا فقال نعم

وسئل سليمان هل يعرف السيد عبد الله الغزى الحاضر هنا فقال نعم

وسئل السيد عبد الله الغزى هل كان يعلم بشروع سليمان فى قتل القائد العام فاجاب معترفا انه عند وصوله أفضى اليه بعزمه على الجهاد ضد المشركين وقتل القائد العام وانه عمل على ارجاعه عن هذا العزم

وسئل لماذا لم يرشد عنه فقال انه كان يعتقد ان سليمان لابد أن يكون قد ذهب لاخطار الشيخ الاكبر وان الاخير لابد أن يكون صرفه عن عزمه. وقال انه سيراعى ذلك فى المستقبل

وسئل هل يعلم بوجود أشخاص آخرين فى القاهرة مكلفين بقتل الفرنسويين فقال انه لا يعرف شيئا عن ذلك ولا يعتقد شيئا من ذلك

وسئل هل تكلم مع أحد فى مشروع سليمان وهل سليمان تكلم فيه مع أى أشخاص فى القاهرة فقال لا أعلم

وتلى محضر المواجهة هذا على المتهم سليمان وعلى محمد الغزى والسيد احمد الوالى والسيد عبد الله الغزى فأقروا بصحة أقوالهم فيه دون شيء يريدون اضافته أو حذفه، وصمموا وامضوا عليها وتوقع مناومعنابراسفيك ولهوماكا المترجمان ومسجل الدعوى ، القاهرة فى يومه وشهره وسنته ويلى ذلك امضاآت المتهمين باللغة العربية ثم هيئة التحقيق : باتست سانتى لهوماكا مترجم السكرتير المترجم الاول للقائد العام ، داميان براسفيك ، سارتلون ، بينيه مسجل الدعوى .

وبعد قفل هذا المحضر انا القوميسير المقرر سألت المتهمين الاربعــــة هل يريدون أن يختاروا واحداً من أصدقائهم ليتولى الدفاع عنهم وبما انهم قرروا عدم استطاعتهم اختيار أحد عهدنا للدعو لهوماكا Lhommaca المترجم ليتولى هذه المأمورية ، القاهرة فى تاريخه ، سارتلون ، بينيه المسجل

استجواب مصطفى افندى

فى يوم تاريخه ٢٦ بريريال من العام الثامن للجمهورية الفرنسية أنا الموقع أدناه

المقرر لدى المجلس المؤلف لمحاكمة قتلة القائد العام كليبر دعوت أمامى المدعو مصطفى افندى لسؤاله عن المسائل المتعلقة بهذه الجريمة وقد شرعت فى ذلك بمساعدة المواطن بينيه مسجل الدعوى

سئل عن اسمه وعمره ومحل سكنه وصناعته فقال: اسمه مصطفى افندى وأصله من بروز بأعمال بيتنيا Brouze de Bithynie وعمره ٨١ سنة وصناعته ناظر مدرسة

وسئل هل رأى منذ شهر المدعو سليمان الحلبى فقال ان هذا الرجل كان تلميذه من منذ ثلاث سنوات وانه رآه من مدة عشرة أيام أو عشرين يوما إذ جاء للمبيت عنده ولكنه بالنظر الى فقره طلب اليه البحث لنفسه عن مكان آخر

وسئل هل سليمان المذكور لم يخبره بأنه حضر من الشام بغرض قتل القائد العام فقال لا وانه جاء اليه فقط للسلام بصفته كان أستاذاً له

وسئل هل لم يطلعه سليمان على أسباب حضوره وهل هو لم يسأله عن ذلك فقال أنه لم يشتغل إلا بالتخلص منه لكونه (أى مصطفى افندى) فقيراً وانه مع ذلك سأله عن الغرض من مجيئه فقال انه جاء ليتقوى فى القراءة

وسئل هل يعرف أنه ذهب لمقابلة أحد فى القاهرة خصوصاً من كبار المشايخ فقال انه لايعرف ذلك لانه لم يره إلا مدة قليلة جداً وانه من جهة أخرى لايخرج إلا قليلا بسبب سنه وعاهته

وسئل هلا يدرس القرآن لتلاميذه فقال نعم

وسئل هل يأمر القرآن بالجهاد ويوصى بقتل المشركين فقال انه يعرف الجهاد وان القرآن يتكلم عنه

وسئل هل يلقن تلاميذه مثل هذه التعاليم فقال ان شيخاً مسناً مثله لا دخل له فى كل هذا ولكن الصحيح أن القرآن تكلم عن الجهاد وأن من يقتل مشركا يكون فى السبيل السوى

وسئل هل علم سليمان شيئاً من هذه المبادىء الجميلة فقال انه لم يعلمه إلا الكتابة

وسئل هل يعرف أن مسلماً قتل بالامس القائد العام للجيوش الفرنسية الذى ليس من دينه وهل يعد عمل كهذا عملا مشكوراً حسب القرآن ويستحق رضاء الرسول فقال أن من قتل يجب أن يقتل وفى رأيه هو أن شرف الفرنسويين هو أيضاً شرف المسلمين فاذا قال القرآن بغير ذلك فليس الذنب ذنبه هو

وعلى الفور ووجه سليمان بمصطفى افندى وسئل هل تقابل أكثر من مرة بالافندى مصطفى وهل أفضى اليه بمشروعه فقال انه لم يتقابل معه إلا مرة واحدة بوصف كونه أستاذه السابق وانه ذهب اليه لتحيته فقط وأن هذا الرجل عجوز وعاجز ولم يكن من المناسب أن يفضى اليه بمشروعه

وسئل أليس هو من حزب الجهاد المقدس وهل لم يكلفه المشايخ أن يقتل المشركين فى القاهرة للحصول على رضاء النبى محمد فقال انه تكلم عن الجهاد مع المشايخ الاربعة الذين ذكرهم فقط

وسئل هل لم يتكلم مع الشيخ الشرقاوى فقال انه لايرى هذا الشيخ لانهما ليسا من مذهب واحد لأن الشيخ الشرقاوى شافعى أما هو فحنفى

وتليت على سليمان ومصطفى اجاباتهما فقررا أنها قرينة الصحة دون حاجة الى زيادة عليها أو نقص فيها وأمضيا معنا ومع المواطن لهوماكا المترجم ، القاهرة فى تاريخه ، امضاءات المتهمين بالعربية ثم توقيعات : ب . سانتى لهوماكا ، سارتلون ، بينيه مسجل الدعوى

تقرير

مؤرخ ٢٧ بريريال سنة ٨ مقدم من قوميسير الأوامر سارتلون الى المجلس المؤلف لمحاكمة قاتل القائد العام كليبر وشركائه :

أيها المواطنون

ان الحداد العام والحزن العميق المكتنفين لنا ، فيهما الدليل على عظم المصاب

الذى نزل بالجيش . ففى مجال النصر والمجد اختطف من بيننا قائدنا قتيلا بنصل مجرم حركت يده الاثيمة روحه الخائنة المتعصبة فارتكب مغامرته العاقة . ولما كان قد عهد الى أن أجرى فى هذا الرجل الوضيع وشركائه نقمة القوانين فاسمحوا لى بافاضة الدموع والحسرات على ذلك الذى بعد أن كان موضع احترامنا صار موضع اهتمامنا المرير وحزننا البارح ، وانى إذ أؤدى هذا الدين الذى فى عنق لذكرى الراحل العظيم لأشعر بأن عبء مأموريتى إزاء مقتله صار أقل مرارة وأكثر احتمالا وان فكرى صار أكثر استعداداً لتصور بشاعة الحادث الجلل الذى أقف حياله

لقد سمعتم ووعيتم الآن تلاوة التحقيق وما اشتمل عليه من استجواب المتهمين وباقى أوراق الدعوى ، ان أية جريمة لم تثبت قط ثبوت هذه الجريمة التى اجتمعتم للحكم على مقترفيها المرذولين وان شهادات الشهود واعترافات القاتل وشركائه لتلتقى ليتكون منها الضوء الذى يبين لكم فى أبشع صورها هذه الجريمة المنكودة

وسوف أسرد لكم الوقائع سردا عاجلا فاستثير الاستهجان فى نفوسكم . فلتعلم أوروبا وليعلم العالم أجمع ان الوزير الاكبر والصدر الاعظم للامبراطورية العثمانية وان قواد جيشه وان جنوده قد بلغ بهم الجبن ان أرسلوا قاتلا أثيما الى ضحيتهم كليبر الذى عجزوا عن التغلب عليه فى ميدان الحرب ، فاضافوا الى فضيحة هزيمتهم فضيحة الجريمة السافلة التى تلطخ أيديهم أمام العالم

وانكم جميعا لتذكرون هذا الرهط من العثمانيين الذى تألب منذ ثلاث شهور على نداء الوزير ، من القسطنطينية ومن مجاهل آسيا ، لاستخلاص مصر التى توهموا انتزاعها من أيدينا وحملنا على تركها تذرعا بمعاهدة رفض حلفاؤهم أنفسهم أن ينفذوها ، فما كادت بقايا هذا الرهط المتوحش بعد انهزامه فى المطرية وهليوبوليس تعود بالخزى عبر الصحراء حتى تعالت صيحات الغيظ واليأس بين صفوفهم وغمر الوزير بقاع مصر والشام بنشرات يحض فيها على اغتيال الفرنسيين الذين أوردوه مورد الهزيمة واتخذ الجنرال بصفة خاصة هدفا لشفاء أحقاده

ففى الوقت الذى يرتع فيه المصريون المضللون بهذه الدعايات فى بحبوحة التسامح

والكرم من جانب غالبيهم وفى الوقت الذى نكرم فيه أسرى جيش الوزير ونستقبل جرحاه فى مستشفياتنا يعمل الوزير جاهداً على ارتكاب الجريمة النكراء التى جعل يبيتها من زمن طويل واستعمل فى تسهيل ارتكابها أغاً مسخوطاً عليه كيما يفوز الآغا من وراء ارتكابها برضاء الوزير وينجو برأسه المهدرة من قبل

ان احمد أغا المعتقل فى غزة منذ سقوط العريش يذهب الى القدس بعد هزيمة الوزير ، وفى أوائل جرمنال الماضى ويصير بنزل المتسلم سجناً له ، وهناك ينسج خيوط الجرم الفظيع الذى حملته وحشيته على الاضطلاع به

ويريد القدر أن تتهيأ جميع الظروف لتنفيذ نقمة الوزير

سليمان الحلبى الشاب الذى له من العمر ٢٤ سنة والذى لاشك انه موصوم بوصمة الاجرام يذهب الى الآغا فى نفس يوم وصوله الى القدس ويطلب حمايته فى سبيل منع الاضطهاد المتواصل الذى لاينفك حاكم حلب ابراهيم باشا يوقعه بأبيه التاجر بتلك المدينة ويعود اليه فى اليوم التالى ريثما تكون المعلومات قد تجمعت عن صفات الشاب المتعصب وأخلاقه وعرف انه يتأهب للالتحاق كقارىء للقرآن بأحد الجوامع وانه فى القدس لقضاء فريضة الحج وانه سبق له أن حج مرتين الى مكة والمدينة وان روح التعصب الدينى قد أثرت أبلغ الاثر فى رأسه المضطربة بخاطىء الأقاويل عن مقتضيات الاسلام الصحيح حتى بات يعتقد أن أقوى دعائم الدين وأعز وسائله هى الجهاد فى سبيل الله وموت المشركين ، ومنذ تلك اللحظة لايتردد احمد أغا فى أن يزجى اليه فكرة المشروع الذى سيوفده لتنفيذه ويعده بالحماية والمكافأة فيبعث به الى يس أغا الذى يتولى قيادة مفرزة من جيش الوزير فى غزة بحيث لم تمض بضعة أيام حتى كان الأخير قد زوده بما احتاج اليه من التعليمات والنقود

غدا سليمان موطد العزم على الجريمة فبدأ الرحلة ومكث عشرين يوما فى الخليل بفلسطين منتظراً قافلة يعبر معها الصحراء ووصل الى غزة وهو يكاد يفقد الصبر فى الأيام الأولى من فلوريال الماضى

يس أغا يأويه فى أحد الجوامع لكى يشحذ فيه روح التعصب ، ويكثر من لقياه

سراً بالنهار والليل فى العشرة الأيام التى مكثها هناك ، ويزوده بالوصايا وأربعين قرشاً تركياً ويهيء له السفر على ظهر هجين فى سياق قافلة أحضرته الى مصر فى ستة أيام

وصل الى القاهرة فى أواسط فلوريال متقلداً خنجراً . وقدكان بالقاهرة من قبل حيث أقام ثلاث سنوات ، واتخذ مقامه حسب التعليمات التى لديه فى الجامع الكبير وطفق يستعد لاقتراف الجرم الذى بعث لاقترافه من قبل (الكائن الأعظم) ويعلق لأدعية المخطوطة على جدران المسجد .

هنا استقبله أربعة من مقرئى القرآن مولودون مثله فى الشام فكاشفهم بجلية أمره وباحثهم فى جميع الأوقات ولم يقعده عن الجريمة إلا ما تنطوى عليه من العسر وتبعته من الخطر

محمد الغزى والسيد احمد الوالى وعبد الله الغزى وعبد القادر الغزى يستودعهم سليمان سر مأموريته فلا يفعلون شيئاً لمنع الجريمة فجعلوا أنفسهم شركاءه فيها بسكوتهم المطبق المستمر

ويتربص الجانى لضحيته واحداً وثلاثين يوما فى القاهرة ثم يعمد فى النهاية الى الذهاب الى الجيزة ويقضى بذلك يوم رحيله الى محمد الغزى أحد المتهمين

ويبدو أن كل شيء استقام له فى سبيل تسهيل الجريمة فيذهب الجنرال الى الجيزة ثانى يوم وصوله اليها ليعود منها الى القاهرة ويلاحقه سليمان طيلة الطريق ويضطر حرس الجنرال الى أبعاده أكثر من مرة ولكنه يظل يتتبع الفريسة ويتوصل آخر الامر فى ٢٥ بريريال الحالى للاختباء فى حديقة الجنرال ثم يقبل عليه لتقبيل يده وتأخذ الناس الشفقة به لتعاسة حاله فلا يدفعونه عن الجنرال ويغتنم سليمان هذه الفرصة الفريدة فيغمد خنجره فى جسم الجنرال أربع مرات . وعبثاً يحاول المواطن بروتان المهندس وعضو المجمع أن يبذل نفسه فى سبيل انقاذ الجنرال فلا تنفع شجاعته ويصاب هو الآخر بستة جروح قضت على مقاومته

وهكذا سقط الجنرال دون مقاومة تحت ضربات الجانى ، وهو القائد العظيم

المجلل الرأس بغار المجد الذى تراجعت عنه فى المامع اخطار الحروب ، وهو أول من عبر نهر الرين على رأس جيوش الجمهورية وهو الذى أعاد فتح مصر فى وجه جموع العثمانيين

ماذا عسانى استطيع أن أضيف الى التعبير عن الالم المبرح الذى نشعر به من أجله . هل أذكر دموع جنوده الذين كان لهم بمثابة الوالد أم أذكر ما يملأ من الأسى قلوب قواده الذين حضروا فعاله وزاملوه فى مواطن المجد ، والحداد الشامل الذى نشر لواءه على الجيش ؛ حسب الفقيد هذا مدحاً وثناء

ان سليمان القاتل لم يستطع أن يفلت من متبقى آثاره فالدم الذى كان ملطخا به ، وخنجره ومظهره الأشعث قد نمت عن جريمته ، وقد اعترف ودل على شركائه ، ويبدو كأنه يباهى بالجريمة الشنعاء التى اقترفها ، ففى أثناء التحقيق وفى وجه العذاب الذى ينتظره نراه يحتفظ بنمط لا يتغير من الهدوء كان خليقا به أن تكون هدوء البراءة فاذا به هدوء التعصب الأعمى

ولقد اعترف الشركاء أيضاً بما أفضى به اليهم القاتل عن جريمته المبيتة التى أعانو على ارتكابها بسكوتهم

وعبثا يحاولون أن يدعوا أنهم لم يكونوا ليصدقوا ان سليمان قادر على ارتكاب هذه الجريمة وانهم كانوا يكشفون أمره لوانهم تصوروا أنه كان حقيقة صحيح العزم على ارتكابها ، فالوقائع تنطق بتكذيبهم إذا انهم استقبلوا القاتل وآووه ولم يعملوا على ارجاعه عن مشروعه الا تلقاء الخطر الذى ينجم عنه للقاتل نفسه فهم اذن شركاؤه وليس لهم أى عذر ولن أتكلم عن مصطفى أفندى فان هذا الشيخ الهرم لاينهض ضده أى دليل على اشتراكه معهم أما نوع القصاص الذى يستحقه الجناة فمتروك كلية لتقديركم بمقتضى الأمر الذى وضع على عاتقكم الفصل فى هذه الدعوى على اننى أطلب اليكم أن لا تصدروا حكما ليس فى مألوف البلاد التى نحن فيها وان كان يجب أن يكون مناسبا لفظاعة الجرم ويبدو لى أن الخازوق يناسب هذا المقام على أن تحرق يد هذا الرجل أولا ثم يلقى حتفه على الخازوق ويبقى جسمه عليه حتى تنهشه الطيور ،

وأما الشركاء فمع عظم جرمهم يجب أن يكون قصاصهم دون قصاصه فى القسوة ولعل عقوبة الاعدام كما هى معروفة فى مصر تناسب ما يستحقونه

وسيرتعد الوزير والعثمانيون المتوحشون الذين يقودهم إذ يصلهم نبأ القصاص الذى ينزل بهذا الوحش الذى اجترأ على أن يكون أداة إنتقامهم

حقيقة أن جرمهم قد حرم الجيش أميراً سيكون على الدوام موضع ذكرياتنا الدامعة ولكنه سيبقى غير ذى أثر فى شجاعتنا . أن خليفة قائدنا الراحل وهو الذى نعرف عنه مقدما مزاياه وصفاته وشجاعته سيعرف كيف يقودنا الى النصر ، وأما أولئك الجبناء الذين لاتحمر وجوههم خجلا من إقدامهم على الانتقام لهزيمتهم بالاغتيال فلن يكسبوا أمام العالم سوى العار .

ان تقريرى هذا ليملى دواعى ماتقدم به اليكم وهو (١) ان يقضى بأدانة المدعو سليمان الحلبى فى اغتيال القائد العام كليبر ويحكم بحرق يده اليمنى ثم يوضع على الخازوق حتى يموت وتنهش الطيور الجارحة جسمه (٢) أن يقضى بأدانة الشيوخ الثلاثة محمد وعبد الله واحمد الغزى فى الاشتراك فى هذه الجريمة ويحكم بقطع رؤوسهم (٣) ان يحكم على الشيخ عبد القادر غيابيا بنفس هذا الحكم (٤) أن تنفذ الاحكام لدى العودة من الجنازة بحضور الجيش والأهالى مجتمعين لهذه الغاية (٥) أن يحكم ببراءة ساحة مصطفى أفندى ويفرج عنه (٦) وفى النهاية أن يطبع من الحكم وأوراق الدعوى خمسمائة نسخة وتنشر مع ترجمتها الى اللغتين التركية والعربية لتعليقها فى مختلف انحاء الاقاليم بالمواقع المعتادة والمخصصة لذلك

الحكم

فى العام الثامن من الجمهورية الفرنسية وفى يوم ٢٧ بريريال فى المنزل الذى يقيم به قائد اللواء رينييه وبناء على الامر الصادر من الجنرال مينو قائد جيش الشرق بالانابة اجتمع كل من قائد اللواء رينييه وقائد البلوك روبان وضابط البحر ليروا والادجونانت جنرال مارتينيه والادجونانت جنرال موران وقائد المشاه جوجيه وقائد المدفعيه فور وقائد أركان الحرب برتراند وقوميسير الحربية رينيه وقوميسير

الأوامر سارتلون بصفته مقرر وقوميسير الحربية لوبير بصفته ممثلا للسلطة التنفيذية وتولى التحرير قوميسير الحربية بينيه بصفته مسجلا للدعوى وذلك للشروع فى المحاكمة النهائية لمن تجب محاكمته فى قضية جريمة القتل التى ارتكبت فى يوم ٢٥ من هذا الشهر وكان المجنى عليه فيها القائد العام كليبر .

ولما التأم عقد الاجتماع أمر الرئيس الجنرال رينييه بأن تودع على منضدة الجلسة صورة من أمر الجنرال مينو المشار اليه سابقاً وتمت تلاوته ثم قرأ العضو المقرر على الهيئة محاضر التحقيق وكذلك مختلف مستندات الأدانة والبراءة فيما هو منسوب إلى المتهمين سليمان الحلبى والسيد عبد القادر الغزى ومحمد الغزى وعبد الله الغزى واحمد الوالى ومحمد افندى ، يقصد مصطفى افندى ، وبعد الانتهاء من قراءة ما تقدم أمر الرئيس باستحضار المتهمين امام المجلس مطلقا سراحهم وغير مقيدين بالحديد ومصحوبين بمحاميهم وفتحت أبواب قاعة الجلسة وجعلت علنية .

وتولى الرئيس والاعضاء توجيه الاسئلة إلى المتهمين بواسطة المواطن براسفيك فأجابوا عليها مصرين على اعترافهم بالجريمة كما سبق أن اعترفوا بها فى محاضر التحقيق .

وسألهم الرئيس هل ليس لديهم أقوال أخرى يريدون إبداءها فتكلم المحامى المعين للدفاع عنهم قائلا أن ليس لديه ما يريد قوله فأمر الرئيس بأعادتهم إلى السجن تحت حراسة حراسهم .

وسأل الرئيس اعضاء المجلس هل لديهم ملاحظات يريدون إبداءها ولما أجابوا بالنفى أمر بأخلاء القاعة للمداولة فى الدعوى سريا .

وقد وجه الرئيس السؤال الأول كما يأتى : « سليمان الحلبى عمره

٣٤ سنه ومقيم فى حلب ومتهم باغتيال القائد العام والمواطن بروتان مهندس المبانى فى حديقة الحاكم العام يوم ٢٥ الجارى هل هو مذنب ؟ » وأخذت الاصوات ابتداء من أصغر الأعضاء رتبة فانعقد الاجماع على قرار بأن المتهم مذنب .

ووجه السؤال الثانى « السيد عبد القادر الغزى قارىء قرآن بالجامع الكبير أصله من غزه ومقيم بالقاهرة المتهم بالاشتراك فى الجريمة بأن ائتمن على سر مشروع الأغتيال فلم يبح به ثم ركن إلى الهرب ، هل هو مذنب ؟ » فكان القرار الأجماعى أنه مذنب .

ووجه السؤال الثالث « محمد الغزى عمره ٢٥ سنه قارىء قرآن بالجامع الكبير أصله من غزه المتهم بأنه ائتمن على سر مشروع اغتيال القائد العام إذ أبلغ اليه فى اللحظة التى تأهب فيها الجانى للمسيربقصد ارتكاب الجناية فلم يبح به .هل هو مذنب ؟ » فكان القرار الاجماعىأنه مذنب

ووجه السؤال الرابع « عبد الله الغزى عمره ٣٠ سنه أصله من غزه وصناعته قارىء قرآن بالجامع الكبير متهم بأنه استودع سر مشروع قتل القائد العام فلم يبح به . هل هو مذنب ؟ » فكان القرار الأجماعى أنه مذنب .

ووجه السؤال الخامس « احمد الوالى أصله من غزه وصناعته قارىء قرآن بالجامع الكبير متهم بأنه علم بمشروع قتل القائد العام فأسره . هل هو مذنب ؟ » فكان القرار الاجماعى أنه مذنب .

ووجه السؤال السادس « محمد افندى عمره ٨١ سنه أصله من بورصه متهم بالاشتراك فى الجريمة هل هو مذنب ؟ » فكان القرار بالاجماع أنه غير مذنب وصدر الأمر بأخلاء سبيله وطلب ممثل السلطة التنفيذية تطبيق

عقوبة الأعدام على المتهمين الذين أعلنت إدانتهم وأخذت الأصوات لتحديد نوع العذاب الذى يفرض على هؤلاء المتهمين ثم تلى البند الخامس من الأمر الصادر من الجنرال مينو بتاريخ أمس وهذا نصه :

« يحدد المجلس نوع العذاب الذى يراه مناسبا للاقتصاص من القاتل وشركائه » فقرر المجلس بالأجماع اختيار أحد أنواع العذاب المعروفة فى هذه البلاد بالنسبة للقاتل يكون مناسبا لعظم الجريمة وحكم على سليمان الحلبى بحرق قبضة يده اليمنى وأن يوضع بعد ذلك على الخازوق حيث يبقى إلى أن تنهش الطيور الجارحة جسمه ويكون تنفيذ هذا الحكم على هضبة القلعة التى فيها المجمع العلمى بمجرد الانتهاء من مواراة القائد كليبر وذلك بحضور الجيش والأهالى المجتمعين لشهود الجنازة .

وحكم المجلس بالموت على السيد عبد القادر الغزى غيابيا مع مصادرة أملاكه لصالح الجمهورية الفرنسية وتعليق نص هذا الحكم على الخشبة التى كان يجب أن تعد لرأسه .

كما حكم على محمد الغزى وعبد الله الغزى واحمد الوالى بقطع رؤوسهم وعرضها فى ساحة التنفيذ مع حرق أجسامهم فى موقد يقام لهذا الغرض فى نفس المكان ويكون تنفيذ الحكم فى المذكورين بالترتيب الآتى : عبد الله الغزى ، احمد الوالى ، محمد الغزى وفى النهاية سليمان الحلبى

وأمر المجلس بأن يطبع الحكم باللغات التركية والعربية والفرنسية من خمسمائة نسخة ويعمم نشره حيثما لزم ذلك مع تكليف المقرر الاستمرار فى الاضطلاع بكل ما يتعلق بتنفيذ هذا الحكم .

تحريراً بالقاهرة الخ الخ . وتلى ذلك الامضاءات .

وقد قرىء هذا الحكم على المتهمين وشرح لهم بمعرفة المواطن

لهوما كا المترجم فقرروا بعدم وجود أقوال يضيفونها على اجاباتهم السابقة
وبعد ذلك تم تنفيذه فى ٢٨ من شهر بريريال الجارى الساعة الحادية عشرة
صباحا فى المكان المقرر ، القاهرة فى ٢٨ بريريال سنة ٨

« صورة طبق الأصل » المسجل بينيه

* * *

تعقيب

ودفن الجنرال كليبر باحتفال فخم بالمعسكر الكائن بمزرعة ابراهيم بك وخطب فى تأبينه المواطن فوريبه Fuoréer السكرتير الدائم للمعهد . ثم نقل جثمانه سنة ١٨١٨ إلى فرنسا حيث استودع أرض وطنه بمدينة ستراسبورج فى ضريح أنشىء له بميدان الجيش « Place d'Armes »

وفى تاريخ الجنرال كليبر أنه كان على جانب عظيم من الشجاعة والخيلاء مصحوبين باطلاع واسع على فنون الحرب وأصول القيادة وكان عظيم القامة مليح الصورة حسن الهندام وقد رقى إلى رتبة جنرال فى سن الأربعين سنة ١٧٩٣ أى فى أوائل عهد الثورة الفرنسوية وسجل له تاريخه هذه الثورة انتصارات باهرة على أعداء الجمهورية فى جبهات متعددة أهمها فانديه Vendée وشارلروا Charleroi وفلوريس Fleurus و مايستريخت Maestricht والتكرش Altkirche وفريدبرج Friedberg . ثم أنه هو الذى اقتحم الاسكندرية سنة ١٧٩٨ . فلا عجب ان ينظر الشعب الفرنسى إلى فعاله بالزهو والأعجاب وان يخص ذكراه بالتكريم والأكبار .

* * *

ويقول مؤلف الكتاب الذى ترجمنا عنه هذه القضية وهو A. G....d (المظنون أنه Galland) أنه لم يكن بين المتهمين فى قضية مقتل الجنرال كليبر أى مصرى صميم لأنه قد تصادف ان سليمان الحلبى وشركاءه كانوا

جيعاً سوريى الأصل . فانتهز المؤلف هذه المصادفة للنيل من وطنية المصريين والتعريض بشجاعتهم ، ولعل عذر المؤلف فى زعمه هذا هو شدة ميله إلى أبناء جنسه الفرنسويين الذين رافقهم فى حملتهم على مصر وهو يحاول بهذا الزعم الفاسد أن يخفف من مسؤولية مواطنيه باظهار أبناء مصر فى مظهر الراضين عنهم أو على الأقل فى مظهر المستكينين اليهم

على أن أبناء مصر وان لم يكونوا هم الذين اغتالوا الجنرال كليبر بالذات ، قد حاربوا الفرنسيين وجها لوجه وأفنوا الألوف من جنودهم وقتلوا فى ميدان القتال عدداً من خيرة قوادهم وهذا الكتاب بالذات الذى ننقل عنه قضية سليمان الحلبى حافل بانباء ذلك فلا حاجة بنا إلى الرجوع إلى الجبرتى أو غيره من كتاب الشرق فى بحثنا عن النبأ اليقين وإنما نقتبس ذلك من كلام الأستاذ G.....d نفسه .

يقول المؤلف (صحيفة ٦٣ من المجلد الأول) وهو يصف قدومه مع الحملة الفرنسية تحت أمرة الجنرال بونابرت إلى القاهرة عقب فتح الاسكندرية مباشرة فى العام السادس من الثورة ما تأتى ترجمته حرفياً « وكانت الريح تهب بشدة من جهة الشمال وقت أن وصلنا إلى بولاق تجاه القاهرة فى اليوم الأول من شهر برومير Brumaire بين الساعتين الثامنة والتاسعة صباحا فسمعنا خبر قيام الثورة فى القاهرة وأن عدة فرنسيين قتلوا فيها وأن الفرنسيين أطلقوا المدافع أثناء الليل على مسجد الزهور حيث احتمى الثوار » وهنا جاء المؤلف بنص التقرير الذى ارسله القائد العام بونابرت عن وقوع هذا الحادث إلى حكومة الديركتوار بباريس « Le Dirèctoire Exécutif » وفيه يقول بونابرت « وقد اشتد هياج الشعب فهجم عليه الجنرال دبوى Dupuy ومزق جموعه كل

ممزق واخترق طريقه فيه فأصيب بضربة رمح تحت أبطـه قطعت الوريد فلم يعش من الدقائق إلا ثمانية . وأخذ القيادة عنه الجنرال بون Bon وأطلقت طلقات المدافع الخاصة بطلب النجدة وانتشر التراشق بالرصاص فى جميع الشوارع وأخذ الشعب فى نهب مساكن الأغنياء وعند الغروب كاد الهدوء يشتمل المدينة ما عدا منطقة الجامع حيث كان العصاة مجتمعين للتشاور حاجزين المنطقة كلها بالحواجز والمتاريس . وفى منتصف الليـل ارتقى الجنرال دومارتان Dommartin ومعه أربعـة مدافـع إلى هضبة مشرفة على الجامـع فرأى العرب والفـلاحين يحتشدون لنجدة العصاه وأصدر الجنرال لان Lasne أمره إلى الجنرال فو Vaux بمهاجمة عدد منهم يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف فتفرقوا باسرع مما كان فى ظنهم وغرق منهم كثير فى الفيضان وفى الصبـاح أوفد الجنرال دوماس Dumas على رأس الفرسان لجاب المنطقة وطرد الأعراب إلى ما وراء العتبـة . وفى الساعة الثانية بعد الظهر ساد الهدوء خارج أسوار المدينة واجتمع الديوان وكبار الشيوخ وعلماء الدين وتقدموا إلى المتاريس المقامة حول منطقة الجامع فأبى عليهم العصاة المرور وأطلقوا عليهم البنادق فأرسلت اليهم ردى عند الساعة الرابعة بطلقات مدافع الهاون من القلعة كما افرغت عليهم بطاريات الجنرال دومارتان طلقاتها فحطمت المتاريس فى أقل من عشرين دقيقة وأخليت المنطقة وباب الجامع فى قبضة الجيش وساد النظام وقد قدر عدد خسائر العصاه بما يتراوح بين الفين والفين وخمسمائة . واما خسائرها فمقدارها ستة عشر رجلا ماتوا فى القتال وقافـلة من الجرحى قوامها واحد وعشرون كانت فى طريق العودة فتك بها وعشرون رجـلا آخرون من مختلف الطبقـات والجيش يأسـف كل الأسف عـلى موت

الجنرال ديبوى . ثم ان ياورى الخاص سلكوفسكى Sulkovuski ذهب فى الفجر ليستطلع الحالة فى خارج المدينة فهاجمه الأهالى وسقط عن جواده الذى تعثر به ففتكوا به وقد كان هذا الضابط مدخراً لمستقبل عظيم »

هكذا كان إذن استقبال المصريين للفاتح الفرنسى بونابرت وجيشه العظيم غداة انتصارات ذلك القائد العظيم فى أوروبا وغزوه جزيرة مالطه فى طريقه إلى مصر ورغم تذرعه لدى المصريين بمعسول الكلام وزائف الروايات كزعمه انه فى وفاق مع السلطان العثمانى على غزو الفرنسويين لمصر وقوله أنه يحب النبى محمداً ويدين بالاسلام .

وفيما يلى نص فقرة من منشور استصدره بونابرت من الديوان « نخبركم يامعشر المؤمنين انكم لا تسمعوا كلام الكذابين فتصبحوا على ما فعلتم نادمين وقد حضر الى محروسة مصر المحمية أمير الجيوش الفرنساوية حضرة بونابرته محب الملة المحمدية ونزل بعسكر فى العادلية سليما من العطب والأسقام شاكراً الله موحداً للملك العلام ودخل الى مصر من باب النصر يوم الجمعة عاشر محرم سنة ١٢١٤ من هجرته عليه السلام فى موكب كبير عظيم بشنك جليل فخيم وعسكر كثير جسيم وصحبته العلماء الأزهرية والسادات البكرية والعنانية والدمرداشية والخضوية والاحمدية والرفاعية والقادرية والاوجاقات السبعية السلطانية وأرباب الاقلام الديوانية وأعيان التجار المصرية وكان يوما مشهورا عظيما لم يقع نظيره فى المواكب السابقة قديما وخرجت سكان مصر جميعا لملاقاته فوجدوه هو الأمير الأول بونابرته بذاته وصفاته وأظهر لهم ان الناس يكذبون عليه وشرح الله صدره للاسلام »

ويقول نقولا الترك الذى عثرنا على هذا المنشور فى كتابه المطبوع

فى باريس عام ١٨٣٩ باللغتين العربية والفرنسية وعنـوانه بالعربية : (ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية تأليف معلم نقولا التركى) وعنوانه بالفرنسية : Histoire de l'Expédition des Français en Egypte Nakoula El Turk) « ان بونابرت قد طبع هذا الفرمان ووزعه على الأقاليم المصرية وان ما ذكر فى هذا الفرمان عنه كان قصده لتهذيب اخلاقهم وتليين اعناقهم وترقيد الفتن والمشاجرات وعدم المناكرات إذ كان عارفا ما يورد عليهم من الحادثات وإنه مضطر إلى الرحيل وسيترك الفرنساوية بمصر بكل ضيق وحصر فلذلك كان يود المسلمين ويظهر لهم الحب واليقين ويشهد لهم بحسن الدين وانه وإياهم على الحق المبين وهم كانوا لهذا الكلام غير محققين وان كل ذلك خداع ونفاق وابتداع الخ الخ »

هذا مثل مما كان يحدث من مقاومة المصريين للفرنسيين فى عهد بونابرت نفسه وهاك مثلا آخر لما حدث بعد سفر بونابرت وقت أن كانت القيادة العامة معقودة للجنرال كليبر وهنا أدع الكلمة كرة أخرى للمؤلف G . . . . d مقتبساً من كتابه (صفحة ٢٥١ المجلد الأولى) ما تأتى ترجمته حرفياً « ولم نغتنم أول الأمر كل الفائدة من انهزام الاعداء (يقصد الاتراك) الذين عادوا يهاجمون مصر فقد استطاعوا مواجهتنا بخدعة حربية سببت هلاك خلق كثير . فان نصيف باشا الذى سبق الكلام عليه استطاع أن يتسلل فى وسط المعمعة ويقوم بحركة التفافية طويلة ارتد بها إلى أبواب العاصمة مصحوبا برؤساء الحكومة المصرية القدماء ماعدا مراد بك على رأس عشرة آلاف فارس تركى والفى مملوك وثمانية الى عشرة آلاف مسلحين من أهالى الريف وأعلن انتصار المسلمين

وأن الجيش الفرنسى أبيد ولم يبق إلا إبادة بقاياه الموجودة فى داخل القاهرة . واستطاع بمناصرة البيكوات أن يقيم الثورة فى القاهرة التى تلقاه أهلها بالفرح العظيم . وكان أهل بولاق قد رفعوا راية العصيان منذ صباح ذلك اليوم . وبذلك بدأت المذبحة المروعة وتوجه نصيف باشا الى محلة الأوربيين متبوعا بجموع الشعب وعبثا حاول التجار الافرنج التلويح بما فى أيديهم من فرمانات فقد انغمست الجموع فى التقتيل والتحطيم دون التفات الى سن أو جنس ورميت الاجساد فى الخليج . ولم ينج إلا من أسلم نفسه إلى الهرب حتى أننى لم أنج بنفسى إلا لأننى اكتفيت بالضرورى جداً من متاعى الخ الخ » إلى أن قال « وتوجه الباشا الى مركز القيادة العامة بمنزل الألفى بك وهو إحد كبار المهاجمين فعانى فيه دفاعا شديدا إذ أصلته القوة المرابطة فيه نارا حامية بلغت من الشدة أن اضطر الباشا ومن معه إلى وضع الحصار على المنزل والمرابطة فى الدور المحيطة به وكان من المدهش أن يقوم مايتا فرنسى تحت قيادة الأدجوتانت جنرال دورانتو Duranteau بهذا الدفاع الباهر فى وجه جيش يعاونه شعب ثائر . وكان من أثر فشل الأعداء أن تضاعفت شراستهم واصبحت الثورة عامة ونادى المنادون من رؤوس المآذن بأبادة المشركين وجابت المدينة المماليك والانكشارية وطفق الشعب يهدر هديرا مزعجا وكان أكثر من خمسين الفا حاملين للبنادق بينما كان جميع الباقين يحملون الفؤوس والهراوات والنساء يعربن عن فرحهن ومساهمتهن باطلاق الزغاريد وانهال الجميع على الاروام والاقباط والشوام ورميت اجسامهم فى الشوارع ولم ينج فى ذلك اليوم سوى اليهود الذين أكتفى الشعب بحبس حريتهم ولم يكن بين الضحايا من المسلمين سوى

الذين كانوا فى خدمة الفرنسيين فقد أخرج أغا الانكشارية من بيته ووضع على الخازوق . وكان المايتا فرنسى لا يزالون يدافعون عن مركز القيادة العامة وكانوا على وشك التسليم حين وصل الجنرال لاجرانج Lagrange فى اليوم التالى مع بعض القوات حاملا إلى القاهرة الانباء الحاسمة عن هزيمة الجيش التركى وتراجعه » إلى أن قال « ووصل الجنرال فريان Friant بعد ذلك ببضعة ايام وقام ببعض حملات موفقة ولكنه وجد ان من العسير التقدم إلى داخل المدينة إذ كان يجد فى كل خطوة يخطوها متاريس وحواجز مبنية يبلغ ارتفاعها ١٢ قدما ويعلوها صفان من الفتحات لأطلاق النار ولما انتهت ذخيرة الشعب جعل يمطر الحجارة وقطع الخشب من الأسطح والنوافذ . ويجب الأعتراف بأن هؤلاء الناس يظهرون منتهى الشجاعة وهم فى حمى الجدران حتى ولو لم يبق امامهم إلا ثلاث قطع من الحجارة . وأخيراً وصل القائد العام فى ٦ من شهر جرمنال وحاول وضع حد لهذه الثورة بالحسنى ولكن شاء فأله إذ بالموعد المحدد أبى الشعب أن يسلم أبواب المدينة فاضطر الجنرال إلى استئناف القتال ، ولم يكن قد اكتمل لدى القائد العام ما يكفى من القوة لضمان النجاح فتحول إلى مفاوضة مراد بك (الذى كان يقود حركة العصيان فى الصعيد) واستمرت القاهرة تحت الحصار الخ الخ » إلى أن قال « وفى ٢١ من ذلك الشهر أنذرت بولاق بالتسليم فرفض الأهالى جميع العروض وقالوا أنهم يستهدفون للمصير المحتوم لباقى القاهرة وأنهم إذا هوجموا سيدافعون حتى الموت وفى يوم ٢٥ أحاط الجنرال فريان بالمدينة (أى بولاق) وشرع فى أطلاق المدافع عليها أملا فى حمل الأهالى على التسليم ولكنهم اجابوا على النار بنار مثلها وعندئذ

حصل الهجوم العام فكان دفاع الأهالى بالغا منتهى الشدة وكان كل منزل بمثابة قلعة جديدة مستعصية وفى وسط هذا الألتحام وعد الفرنسيون بعفو جديد ورفض المصريون العرض وزادت شدة الموقعة ودخل الغزاة المدينة وهى مشتعلة بالنار. وأعلنوا العفو من جديد فى هذه الضاحية المهشمة التى لن تنتعش من الخراب الذى حل بها قبل زمن طويل.»

«وكان مقررا أن يبدأ الهجوم على القاهرة فى اليوم التالى غير أنه تأجل إلى ٢٨ جرمنال بسبب الأمطار الغزيرة التى هطلت فى غير الاوان ففى ذلك اليوم حصل الهجوم وانهالت القنابل على تلك المدينة العاصية وسمع زئير المدافع من جميع الجهات واستمر تبادل طلقات البنادق طول الليل على أعنف صوره. وشبت الحرائق فى نقط عديدة فكانت طعمتها المبانى والمساكن وأوردنا خلقاً كثيراً موارد الموت فى ذلك الاشتباك الهائل ولكنا فقدنا نحن ايضا شجعانا كثيرين دون أن نستطيع التغلب على المدينة. فالجنرال بليار الذى كان قد أبدى أعظم الفروسية فى الاستيلاء على بولاق والذى كان يقود الوسط قد جرح جرحا بالغا وتحمل رجاله خسائر عظيمة وقال البعض ان ما أصاب هذه القوة من الخسائر كان بسبب التغافل عنها من جانبنا وقال آخرون ان عوامل الحقد والحسد لها دخل فى ذلك ولكنى لا استطيع أن أتصور أن أية اعتبارات غير اعتبارات الصالح العالم يمكن أن تكون قد سادت على ذلك الظرف الاستثنائى الخطير»

«وقد امتاز الجنرال رينييه امتيازا عظيما فى هذه المعركة إذ كان قد توغل عن طريق باب الشريعة إلى حى الافرنج. ومع ان هذه المعركة لم تؤد إلى الغايات التى كانت منتظرة منها إذ اننا لم تفلح إلا

فى أحتلال بعض المواقع فأنها غمرت الأهالى بالحزن والخوف وادنتهم إلى طريق التفاهم . حقيقة انهم استمروا على رفضهم شروط القيادة غير انهم طلبوا وقف القتال فرفض الجنرال قبول طلبهم واستؤنف الهجوم وتم احتلال جملة مواقع أخرى . وفى اليوم التالى أرسل نصيف باشا إلى القائد العام خطابا موقعا عليه منه يفيد تسليم المدينة »



والآن فاقرأ معى ما جاء من وصف ذلك اليوم المشهود فى كتاب المعلم نقولا التركى . قال عفا الله عنه باسلوب ذلك الزمان « واما ما كان من أمير الجيوش كليبر فانه حين كسر عسكر الاسلام وفرقهم فى تلك الروابى والآكام وهمّ فى مسيره فى طلب الوزير (يقصد الصدر الأعظم) إلى أن أشرف على مدينة بلبيس فبعد ما أبعد فى تلك الأراضى تجمع البعض من عساكر الأسلام عند ضحا النهار فمنهم الغز وناصيف باشا العظيم والبعض من الانكشارية والمصريين الذين فى تلك الأراضى خبيرين واتوا إلى مصر ودخلوا من باب النصر وكتب ناصيف باشا إلى الوزير يعرفه أنه قد دخل القاهرة بعساكر وافرة وملكوا الكنانة لأنه لم يكن بها أحد من الفرنساوية وأرسل الكتاب مع هجان ولم يدر ما حل ببقية عسكر الوزير من الذل ، وحين دخل ناصيف باشا والغز ألى مصر استبشرت أهلها بالعز والنصر وكانوا قد خافوا من الفرنساوية لترجع اليهم وتبذل سيوفها فيهم فاستنهضوا مع الغز فى الحال وعللوا ارواحهم بالمحال وهجموا على حارة الافرنج التجار فنهبوا الأموال وقتلوا الرجال وسبوا الحريم وقتلوا الاطفال وبدوا يتعصبون عصباً ويهجمون على دور النصارى فينهبون ويسبون ويصنعون القساوة والفساد شىء ما له تعداد

وهجموا على حارة الاقباط وقفلوا فى وجوههم الابواب وكان بها ذلك القبطى الذى كان مع الجنرال ديزه فى الصعيد فردهم مع اصحابه فى الحرب العنيد والرصاص الشديد وأتت الغز إلى حارة الأزبكية وهجموا على بيت السارى عسكر (يقصد القائد العام) فضربتهم الصلدات (يقصد الجنود) بالرصاص والنار ومنعوهم من دخول الدار وكان لهم يوم يذكر جيلا بعد جيل لما به من الهول الجزيل والخوف العظيم والهم الجسيم والعذاب الأليم وقد تيقنت النصارى بالهلاك والدمار وهتك الحريم وخراب الديار وقام عثمان بك كتخدا الدولة العلية فى ذو الفقار ومعه الأمراء المصرية وأتت اليه المشايخ والعلماء الاسلامية وجميع التجار مع التاجر المشهور السيد احمد المحروقى المعلوم عند الوزير بالمعرفة والتدبير ، وناصيف باشا نزل عند بركة الأزبكية بالانكشارية واما مراد بك لم يدخل البلد احتسابا مما يتجدد وبقى يجول فى بر الجيزة فى شرذمة وجيزة بفطنته الحريزة وكان عثمان بك كتخدا الدولة العلية ذو نفس عتية وأخلاق مرضية وفطنة ذكية فأخذته الشفقة والرحمة على الرعية واطلق المناداة برفع الاذى عن النصارى والرعية ومنع الاسلام المنع التمام عن النهب الحرام وأمر اجناده أن تدور بالحارات وكل من بدا منه فساد يقطعوه بالسيوف الحداد ولم تزل النار تثور والشر يفور والخلائق قائمة والهيجات دائمة ذلك النهار بتمامه والليل بظلامه والخلائق تجتمع والجماهير تندفع وهم يهيجون هيج الجمال ويهجمون هجم الرجال ويرجعون خائبين الآمال وقد اندهشت الأبصار وحارت الأفكار وتاه العقل وطار وحار القائل ما يقول وخشى الناقل تكذيب المنقول فى صلابة أؤلئك الستين صلدات الأبطال وثبات قلوبهم على حمل هذه الأهوال (يقصد الجنود الفرنسيين المحاصرين فى مركز القيادة العامة

وقد ورد عددهم فى كتاب G . . . . d على انهم مائتان لاستون)
إذ كانت تهجم عليهم الخلائق أفواج كالبحر العجاج وتهجم عليهم
الجيوش هجمات الوحوش الوف الوف تفوق العدد والصفوف مالها مدد
وهذا الجنرال الصنديد يتلقاهم بعزم شديد وذلك الثبات بستين صلدات
واستمروا على ذلك الشأن يومان عظيمان وهذه العوالم تندفع دفعة بعد
دفعة وهى على بيت السارى عسكر مجتمعة وعن حربهم غير مرتجعة ولا
زالوا يهجمون ويرجعون بغير منفعة حتى ولى ذلك النهار القهار وكان
أولئك الصلدات تتلقى تلك الجموعات الهاجة من كل الجهات إذ كان كل
منهم يصادم الوفا ويرغم أنوفا ويهزم صفوفا فاجتمع رأيهم أن يتركوهم
ويذهبوا الى الجيزه فالتقاهم رجل راكب من عسكر العثمانية على جواد
متين عليه هيئة السفر فسألوه ما الخبر فاعلمهم أن جيش الوزير انكسر
وأمير الجيوش انتصر فانطلقت ظهورهم وحاروا فى أمورهم وانثنوا
على أؤلئك الصلدات وزاد الحرب وكثر البلاء والكرب وأظهر ذلك
الجنرال دارنطون (يقصد الارجوتانت جنرال دورانتو Duranteau
الذى سبق ذكره) غرايب الفنون وكان هذا الجنرال رأسه ممسوح من
الشعر لكبر سنه فكانت أهل مصر تدعوه الأقرع والليث الأدرع
واشتد الحصار وهاجت أهل المدينة واظهروا الاحقاد الكمينة وهجموا
على منزل مصطفى أغا (يقصد أغا الانكشارية) وأتوا به إلى قدام
ناصيف باشا وقدموا عليه شهودات بأنه كان يؤذى المسلمين ويود
الفرنساوية فأمر الباشا بقتله ونهب منزله وقبض ايضا على اناس كثيرين
من المسلمين الذين كانوا يخدمون الفرنساويين واذاقوهم الموت المهين وأوردوهم
موارد التلاف وقبضوا على الشيخ خليل البكرى نقيب الاشراف وأتوا به

حافيا عريانا ذليلا مهانا وقدموه لعثمان بك فأمر باطلاقه بعد أن قدموا عليه
جملة شهادات وكان فى أكثر الأوقات شرب فى منزله مع الفرنساوية
المنكرات هذا وتلك الهجمة متصلة على تلك الصلدات من جميع الجهات
وعلى حارة الأقباط التى بها يعقوب الصعيدى وقد كافح هذا الرجل
كفاحا عظيما وعارك عراكا جسيما فهذا ما كان من أحوال مصر
واما ما كان من مدينة بولاق فأنهم حينما بلغهم دخول ناصيف باشا والغز
إلى مصر بالعز والنصر فظنوا أن عسكر الاسلام انتصر وجيش الفرنساوية
أنكسر فقاموا على النصارى الرعية فنهبوا أموالهم وسبوا أعيالهم وعصوا
أهل بولاق عصاوة شديدة وبنوا متاريس جديدة وبعد ثمانية أيام وصل
أمير الجيوش إلى دار الكنانة فوجدها من الأخصام ملآنة وقد أشهروا
العداوة وأظهروا العصاوة وحدثهم عقلهم الذميم فى الجهل العميم على عدم
التسليم واحتاط أمير الجيوش بعساكره الوافرة حول دائرة القاهرة وصلبت
أعناقهم على المحاصرة ومنع الداخل والخارج وسد المسالك والمدارج ونشب
القتال بينهم نهارهم وليلهم فطلبت خلو المدينة العساكر والحكام فما
مكنتهم من ذلك الاعوام وتصدت الأعيان ذوى البيوت وحثوهم على
لاقامة والثبوت ومنهم ذلك البهموت السيد احمد المحروقى فهو يتصدر للجدال
وصرف الأموال وحرض الرجال على الحرب والقتال ولم يزالوا المصريين
مصرين على غرورهم المتين ، وكان أمير الجيوش قد تمكن بعساكره من
القلع والأسوار بقوة النار وكتب الى مدينة الاسكندرية يسترجع
الجبخانة والمدافع التى كان أرسلها حين عزم على التسليم . وقد بلغ أمير
الجيوش ما أبدوه أهالى بولاق من العصاوة والنفاق فأرسل اليهم ذلك
الأسد الهدار والليث المغوار الجنرال بليار وأمره أن يهجم عليهم بالنار

ويهدم الحصون ويخرب الديار فهجم عليهم ذلك البهموت فما قدروا على الثبوت وتركوا المتاريس والتجأوا للبيوت . . . واستمر هذا البلاء العام ثلاثة أيام ففى تلك المدينة هدمت المنازل المتينة واحترقت البضائع الثمينة وراح على التجار من المال والبضائع عدة خزائن وافرة إذ كانت بولاق أسكلة القاهرة فتجتمع بها البضائع والأموال وهى محل للاستقبال والارتحال . . . ومن بعد هذا الخطب العظيم والخراب الجسيم أمر أمير الجيوش أن يؤخذ من أهلها أربعة آلاف كيس تمام الأنكيس وكانت عساكر الفرنساوية مقيمين حول دائرة القاهرة نهاراً وليلا على المحاصرة والمجادلة والمشاجرة وعساكر المدينة لم تمتنع عن الهجمات وراء المتاريس المتينة فى سائر شوارع المدينة وقد عز القوت وهدمت البيوت وقد شدت الفرنساوية الحصار وصارت العساكر تهجم بالليل والنهار وترمى على المدينة النفط والنار وكانت الرجال والنساء والأولاد يختبئون تحت القعودات ولم يكن فى تلك الأيام رقاد ولا مكان مؤتمن بل حرب مستطيل وكرب دائم جزيل ونوح وعويل فبالها من ليلة ما أمرها وأشدها وأحرها ليلة فتحت لها ميازيب السماء وهطلت وعم وجه الأرض بالمياه فاستنهزت الفرنساوية الفرصة وهجموا فى تلك الحصة (هذا يختلف عما رواه G . . . d إذ قال أن الامطار عاقت الهجوم وقضت بتأجيله عدة أيام) واتقدت النيران فى أربع جهات القاهرة واحترقت بيوت كثيرة فى تلك الليلة الممطرة وماتت خلائق لا تحصى من الفريقين وزعق عليهم غراب البين وإذ كانت الناس مستترة فى البيوت التى على رصيف الخشب باليزبكية فأوقدت الفرنساوية لهم النار فكانت ساعة لا تعد بالساعات وهجم الفرنساوية وطردوهم من تلك الحارات واحرقوا منازل كثيرة بتلك

الجهات فاجتمع رأيهم أن يطلبوا الأمان وعقدوا فى بيت ناصيف باشا ديوانا وقد أجتمعت السناجق والكشاف وعثمان بك كتخدا الدولة العلية والعلماء والأشراف وأخذوا يتفاوضون فى أمر التسليم والخلاص من هذا البلاء العظيم وفيما هم فى الأجتماع إذ قد سقطت عليهم بومبة من القنابر ففرق جمعهم وايقنوا بالموت والنزاع وقالوا هذه هى الأخيرة وقد استخرنا الله وهو نعم الخيرة فالتسليم أسلم لنا عاقبة من هذه المجادلة والمعاقبة وانتخبوا أثنين من المشايخ وهما عبد الله الشرقاوى وسليمان الفيومى وأثنين من السناجق وهما عثمان بك البرديسى وعثمان بك الاشقر وأخذوا بيرق أبيض معهم أشارة الامان وساروا مشاة إلى بركة اليزبكية ولما قربوا من ذلك المكان ونظر اليهم أمير الجيوش وعرف الاشارة فأمر برفع ضرب البارود وأرسل اليهم وزيره داماس (يقصد الجنرال داماس Damas) ومعه ترجمانه الخاص قال لهم ما مرامكم قالوا له تسليم المدينة وخروج العساكر بطريقة أمينة (يقصدون العساكر العثمانية) وسفرهم إلى أراضى الشام من القاهرة من دون مشقة ومخاطرة وفرمان الامان إلى الرعايا والاعيان فرجع الجنرال وأخبر أمير الجيوش بذلك فرد الجواب أن الباشا وكتخدا الدولة مع الغز والسناجق وكامل العسكر لهم الامان وأصدر لهم فرمان بل ينقلوا إلى قاطع الخليج ويقيموا هناك ثلاثة أيام بينما يتجهز لهم ما يحتاجون من لوازم الطريق لارض الشام ويخرجون بسائر خيلهم واثقالهم وعند السفر يسير معهم الجنرال رانيه (يقصد رينييه) بأربعة آلاف صولدات إلى الصالحية وجميع من يتركون من المجاريح وذوى الامراض فيكون لهم الامان وعدم الاعتراض .

ونبهوا حالا على العساكر بالانتقال إلى الجهة الثانية من الخليج

ودخلت العساكر الفرنساوية وبعد ثلاثة أيام عمل أمير الجيوش ديوانا ودعا اليه العلماء والاعيان وقال لهم الآن قد صفحت عن خطأكم ولكن يلزمكم أن تدفعوا مليونين من الريال مبلغها ستة عشر الف كيس ثمن دمائكم وعشرين الف بندقية وخمسة عشر الف جوز طبنجات وعشرة آلاف سيف وأربعمائة بغل ومائة حصان وهذه يكون منها على السيد احمد المحروقى مائة وخمسين الف ريال وعلى الشيخ مصطفى الصاوى خمسين الف ريال والشيخ العنانى ثلاثين الف ريال وبقية المال على أهالى البلد جميعها وأما النصارى فليس لهم أن يساعدوكم بدرهم واحد فكفاهم ما جرى عليهم منكم .

ثم استدعى يعقوب القبطى الذى ذكرنا أنهم حاصروه فى حارة الأقباط وأمره أن يسترد منهم فى الحال ما طلبه من المال وارسل من قبض على السيد أحمد المحروقى وضبط منزله وأرسله إلى القلعة وسجن أيضاً امرأته .

وأحضر أمير الجيوش السيد خليل البكرى الذى كانو الاسلام نهبو بيته وانعم عليه بما كان راح له وأرجعه إلى الديوان كما كان وأحضر رجلا ونصبه عوض مصطفى أغا الذى قتلوه وأقامه على الانكشارية ثم يعقوب القبطى أنعم عليه بالجنرالية ووضع على كتفه شراديب الذهب وأمر أن يجمع عسكرا من الأقباط ودعى من ذلك الحين الجنرال يعقوب ثم أحضر نقولا قبطان الروم وأكرمه غاية الاكرام وأعطاه الوظيفة الجنرالية ووضع على كتفه الشراديب الذهبية وأقامه جنرال على العساكر الرومية وألبس عسكره الملابس الأفرنجية وأحضر أيضاً برتولى الصاقزلى وأنعم عليه بالجنرالية .

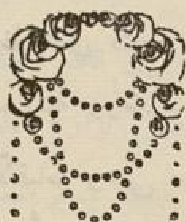
وهذه المرة الثانية التى قامت بها أهالى مصر على الفرنساوية وهذه المرتين أهلكوا من العسكر الفرنسوية ما ينوف عن الثلاثة آلاف ما عدا الذين أهلكوهم خفية فى المنازل ،



وبعد فهذه صفحة قديمة العهد من تاريخ مصر الحديث نحسبها مجهولة للكثرة من ابناء هذا الوطن .

ولقد كانت صفحة احتلال أجنبى مات ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه صفحة جهاد وطنى رائع ، فمن حق هذا الجيل — بل من واجبه — أن يتدارسها ليستخلص منها الدرس والحكمة والموعظة .

ملحوظة : وجدنا قضية سليمان الحلبى واردة فى كتاب الجبرتى ولكنها مشوشة ومملوءة بالأخطاء فضلا عن أنها بلغة دارجة لا تختلف عن لغة الشارع .



صفحة من تاريخ العلاقات

بين غليالم الثانى النورماندى وصلاح الدين الأيوبى

(٢٧ ذى الحجة ٥٦٩ هـ — ٢٨ يولية ١١٧٤ م)

لجناب الدكتور أومبرتو ريتزيتانو Prof. Umberto Rizzitano

أستاذ بجامعة روما والأستاذ الزائر بجامعة فؤاد الأول

حضرات أصحاب العزة مدير الجامعة وعميد كلية الآداب

حضرات الأساتذة الأفاضل والطلبة الأعزاء

ربما كان القليل من حضرات السادة الذين شرفونى بحضورهم يقدرون الحرج الذى يقع فيه أى مستشرق يجرؤ على إلقاء محاضرة بلغة الضاد على أهلها لاسيما إذا كانوا من صفوة الأساتذة والمثقفين . ومن المعلوم أن المستشرقين إنما يتلقون دروسهم عادة على نصوص مكتوبة بالنثر الفنى القديم الذى يختلف كثيراً أو قليلا عن النثر المعاصر وإذا كان أحد هؤلاء المستشرقين قد أتيح له أن يعيش مدة فى بلد من البلاد العربية فلن يقدر إلا على التكلم باللغة العامية المستعملة فى ذلك البلد ، ومن المعروف أنه لم تجر العادة على أن يلقى إنسان محاضرة من المحاضرات باللغة العامية مهما كان شأنها ولهذا فان المستشرق إذا تكلم فانما يتكلم بلغة ليست باللغة العامية وليست باللغة الفصحى المعاصرة التى تستعملها الصحافة اليومية والكتّاب العرب المعاصرون وإنما يستعمل لغة عجيبة نادرة المثال لها تراكيب ليست دارجة الاستعمال ويختار لها ألفاظاً ليست دائماً من الألفاظ الشائعة وهى تلك اللغة التى عرفها عن أمثال الأصفهانى

فى كتاب الأغانى أو الحريرى فى مقاماته المعروفة إلى غـــير ذلك، ويمكن القول بأن المسئولية فى ذلك تقع على كاهل الـكتاب القدماء . وكما عبر أستاذنا الجليل أحمد أمين بك فى بعض مقالاته عن جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى[1] فانه يمكن أن اقول إن هناك جناية أخرى (لاتقل خطراً عن الجناية التى أشار إليها الأستاذ الفاضل) فى استطاعتى أن أطلق عليها عبارة : جناية النـــثر الفنى العربى على المستشرقين عند مايتحدثون باللغة الفصحى . وإنى لأذكر أن زميلا لى من المستعربين قال لى فى العام الماضى فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى مدينة باريس على سبيل الفكاهة (إننا نحن المستشرقين الأوروبيين قد أوجدنا للمحادثة لغة عربية أخرى من نسج اختراعناوهى لغة صحيحة من الناحية اللغوية وتامة من الناحية النحوية ولـكنها بعيدة كل البعد عن اللغة العربية الحيـة وهى تلك اللغة التى نود من صميم أفئدتنا أن نعرفها حق المعرفة لـكى نستطيع إلقاء محاضرات او كتابة مقالات بها .

ولقد كان من حسن حظى أن أكون من مواليد هذا البلد الـكريم المضياف وأن أرضع اللغة العربية مع لبن الأمومة فى وقت واحد ولهـــذا فاننى بفضل هذه الميزة واعتماداً على عظيم تسامحكم وعفوكم أرجو ألا أقع فى تلك الأخطاء التى سبق أن أشرت إليها وأرجو أن أكون قد وفقت إلى استعمال لغة عربية تصل إلى أفهام السامعين

ولى كلمة أيضاً أرجو أن تسمحوا لى بان اقولها قبل ان ادخل فى الموضوع الذى سأتحدث عنه وهى كلمة اريد ان اعرب بها عن اعترافى بجميل حضرات عميد واساتذة كلية الآداب بجامعة فاروق الذين تفضلوا بان شرفونى بالسماح لى بالقـــاء محاضرة فى هذه المدينة الخالدة التى اعتبرها مهدى الأول .

وبصفتى من مواليد هذه المدينة الـكبيرة وكذلك كونى من اصل صقلى أجدانه على واجب مزدوج وهو واجب المساعدة بقـــدر الإمكان على التقريب بين بلدينا أو بالأحرى بين شعبين إذا بحثنا بحثاً جدياً فى تاريخهما لوجدنا انهما قد تقابلا واتصلا عدة مرات ، وإذا بحثنا فى اخلاق وعادات كل منهما لوجدنا بينهما مميزات متشابهة ومشتركة

(١) راجع مجلة « الثقافة » سنة ١٩٣٩ عدد ١٩ و ٢١ و ٢٧ و ٣٠ و ٣٧ .

يحتمل كثيراً أن يكون سببها وجود كليهما على شواطىء البحر الأبيض المتوسط[1] الذى ليس هو فقط بحراً متوسطاً ، كما يدل على ذلك اسمه ، ولكنه بحر شامل جامع لكثير من الأمم التى تقطن هذه الأقطار المحيطة به وهو وسيلتهم الوحيدة فى الاتصال والتبادل فى مختلف نواحى الحياة ، ولقد كانت ، وما زالت ، للبحار فى التاريخ أهمية كبرى وقد يكون من المفيد وضع تاريخ لكل بحر كما وضع تاريخ لكل بر فنرى أية مساعدة ومعاونة قدمتها هذه البحار للبلاد المطلة عليها فى التبادل الحضارى بمختلف نواحيه .

وفى الحق إنه كان للبحر الأبيض المتوسط فى فترة من فترات التاريخ فضل الاتصال بين برين هما من ناحية أرض صقلية وسواحل إيطاليا الجنوبية ومن الناحية الأخرى بلاد أفريقيا الشمالية . ومن الممكن أن يعترض معترض بقوله : إن هذه الاتصالات لم تكن مقابلات ودية بل كانت مصادمات حربية ، وهذا حق لا ينكر ، إذ وقعت فعلا حروب وغزوات وإغارات من كل ناحية من هاتين الناحيتين على الأخرى ومع ذلك يجب ألا ننسى أن الشعوب لا تتعارف فقط فى ظلال العلاقات السلمية ولكنها قد تتعارف أيضاً ويتصل بعضها ببعض من خلال الحروب التى تقرب بين شعب وآخر ، وأظن أنكم قد سمعتم ذلك المثل العربى اللطيف الذى له ما يماثله فى اللغة الإيطالية (ليست هناك محبة بغير عداوة) ومثل ذلك أنه بالرغم من أن روجار الصقلى قد اعتبره مسلمو الجزيرة مغتصب الحكم منهم وأنه طردهم من بلاد كانوا قد فتحوها من نحو قرنين من الزمان فقد ازدهرت فى أيام حكمه المدنية الاسلامية فى صقلية أيما ازدهار ونشطت نشاطاً كبيراً حركة علمية وافرة فى ميادين الثقافة والشعر والفلك والجغرافيا والمبادىء السياسية ، وكل هذا كان بفضل المسلمين الذين كانوا بطبيعة الحال أعداء ألداء للنورمانديين .

ومهما يكن من أمر فلندخل فى صميم الموضوع الذى جئت للتحدث فيه وذلك حرصاً منا على وقت سامعينا الافاضل ولننتقل الى الحديث عن موقف جزيرة صقلية بعد موت روجار الثانى فى ١١٥٤ م — ذلك الملك الذى كان فقده خسارة كبرى

---

(١) راجع ما أشار اليه فى هذا الموضوع الدكتور طه حسين بك فى مقدمة كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) مطبعة المعارف ١٩٣٩.

للجزيرة لأنه كان بالنسبة لصقلية بمثابة الاسمنت من البناء لايمكن البقاء بدونه . وقد حدث أن سقط البناء الشامخ الذى أقامه ذلك الملك العظيم الذى خلع عليه الادريسى أوصافاً عظيمة فى كتابه المعروف (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) اذ سرعان ما سارت بعد موته فى داخل الجزيرة حركات التمرد من جانب خصومه فقد حدث هذا فى عهد غليالم الاول حينما كانت الفرصة سانحة لخلق الاضطراب وتكدير عيش الملك الجديد المعروف باسم جوليالم الشقى ولم يكن هذا فحسب بل إن الموقف فى خارج الجزيرة لم يكن موقفاً طيباً فقد كان البابا ينتظر أحسن الفرص لاجتياح ايطاليـــا الجنوبية واخضاعها . وكذلك كان فردريك باربا روسا (ذو اللحية الحمراء) يصبو الى تملك هذه الاقاليم وللوصول الى هذا الغرض استعان بقوات بيزا وجنوا البحرية ، ولكنه لم يصل الى بغيته ومن الجهة الاخرى كان البيزنطيون يعدون العدة لمهاجمة أقليم بوليا الواقع فى ايطاليا الجنوبية وكذلك كان الموحدون اثناء ذلك قد اشتد ساعدهم وتطلعوا الى استعادة ماكان قد تملكه روجار الاول واخوه روجار الثـانى من بلاد افريقيا . وإننا إذا القينا نظرة على خريطة البحر الابيض المتوسط لأمكننا ان نتصور موقف جزيرة صقلية وان نشعر بان الملك النورماندى كان فى غاية الحرج والصعوبة لانها اصبحت اذ ذاك منعزلة ومحاطة بأعداء من كل الجهات وقد أدرك غليالم الاول حقيقة الموقف وهذا مانفهمه بسهولة من أنه فى بحر الاثنى عشرة سنة التى حكمها بصقلية لم يحاول القيام بحركات خارج الجزيرة إلا مرات قليلة جداً واذا ما استثنينا بعض غزوات بسيطة قام بها بعد موت روجار مباشرة كان القصد منها مهاجمة تنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية ولكنها على كل حال كانت غزوات بسيطة واغارات ليس ذات اهمية ولذلك لم يعلق عليها احد من المؤرخين المعاصرين لها او الذين جاؤا بعدها ثم إنه كانت قد بدأت تعلو فى البحر الابيض المتوسط ولا سيما فى الجانب الغربى منه وعلى الشواطىء الافريقية صيحة الثورة على المسيحيين، تلك الصيحة التى كان اول من اطلقها فى تلك الفترة عمر بن ابى الحسن الحسين الفريانى الذى يمكننا ان نعتبره محرر مدينة صفاقس وعلى اثره ثارت على الحكام الجدد مدينة جربة وعلى اثرهما طرابلس الغرب وقابس وبعد ذلك المهدية التى خرجت من يد المسيحيين فى سنة ١١٦٠ م بعد اثنى عشرة سنة من احتلال النورمانديين لها .

وعندما توفى والد غليالم الاول فى سنة ١١٦٦ لم يكن ابنه قد تجاوز الثالثة عشرة ولذلك عين مجلس وصاية لادارة البلاد استمر فى مباشرة عمله خمس سنوات كاملة بدأ بعدها غليالم الثانى ـ ولم يزل فى سن الشباب ـ حياته كملك وكان يعيش فى أثناء هذه الفترة فى قصوره العديدة القائمة فى بالرمو بين النساء والجوارى عيشة الملوك الشرقيين، وبهذه المناسبة يحسن ان نقرأ ذلك الوصف الشائق الذى تركه لنا ابن جبير فى «رحلة الكنانى» إذ يقول: «... وهو كثير الاتخاذ للفتيان والجوارى وليس فى الملوك النصارى أترف فى الملك ولا أنعم ولا أرفه منه وهو يتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين ...» (١)

ومع ذلك فان التاريخ عرفه باسم غليالم الصالح بينما كان يطلق على ابيه اسم غليالم الشق، ومن المحتمل كثيرا أن لايكون الاب شقياً والابن صالحاً الى درجة يستحقان معها هذين اللقبين ولكن هذا يدلنا على أن كل شيء فى هذه الدنيا لايحكم عليه حكماً صحيحاً وغالباً مايخلع التاريخ على مشاهير الرجال أوصافا لايستحقونها وينسب لهم اعمالا لم يعملوها.

كان أمام غليالم الصالح فى أثناء حكمه أن يختار أحد الطريقين: إما الطريق الذى كان يسير عليه جده وجد أبيه روجار الاول وروجار الثانى اللذين كرّسا كل جهودهما لايجاد فتوحات خارج الجزيرة (٢) أو أن يسير سير أبيه غليالم الاول الذى بسبب حزمه لم يحاول التوسع فى خارج الجزيرة واقتصر على العمل على تحسين الاحوال فى صقلية فى جميع فروع الحياه، وامام هذين السبيلين رأى غليالم الصالح اختيار الطريق الأول وهو طريق التوسع والفتح فى السواحل الافريقية التى كان الجانب الغربى منها مسرحا لنشاط الصليبيين، وبهذه المناسبة يقول آمارى بحق فى كتابه «تاريخ مسلمى صقلية» الذى نود ان نراه منقولا الى اللغة العربية فى اقرب وقت «إن غليالم قد

---

(١) المكتبة العربيه الصقلية، طبعة ١٨٥٧ — ص ٨٣.

(٢) راجع مقالتى فى عدد يونيو ١٩٤٩ لـ Bulletin of Faculty of Arts لجامعة فؤاد الاول.

تسبب فى فقد أرواح وإضاعة اموال تزيد كثيراً عما استهلكه اجداده فى فتوحاتهم »(١)

والان وقد بحثنا الموقف فى جزيرة صقلية فلننتقل الى وصف الحالة فى مصر فى ذلك الحين لكى نميط اللثام عن حقيقة المشروع الذى قام به غليالم الثانى لمهاجمة الاسكندرية فى ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ (الموافق ٢٨ يوليه سنة ١١٧٤م) لنستعيد ذكر الحوادث والرجال الذين تميزت بهم هذه الفترة التى لم يكن موقف صلاح الدين الايوبى فيها أفضل من موقف غليالم الثانى فى صقلية. وذلك لأن السلطان الايوبى على مثال الملك النورماندى كان محاطاً بعدد من الاعداء سواء فى داخل البلاد أو فى خارجها وقد تحدث هو نفسه عنهم فى رسالة له بعث بها إلى ديوان الخلافة فى بغداد وفى هذه الرسالة التى نقرؤها فى « كتاب الروضتين » لأبى شامة المقدسى قال السلطان الايوبى :

« ... فاما الاعداء المحدقون بهذه البلاد والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشداد فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الاكبر والجالوت الاكفر وصاحب المملكة التى أكلت على الدهر وشربت وقائم النصرانية الذى حكمت دولته على ممالكها وغلبت ... ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا فى نوبة دمياط فغلبا وقسراوهزما وكسرا أراد ان يظهر قوته المستقلة فعمر أسطولا استوعب فيه ماله وزمانه فله الآن خمس سنين يكثر عدته وينتخب عدته إلى ان وصل منها فى السنة الحالية إلى الاسكندرية ... »(٢) أما فى داخل البلاد فكان صلاح الدين الايوبى يعمل على إعادة الشعب المصرى الى سيطرة الخلفاء العباسيين الذين كانت قد خرجت مصر من أيديهم من نحو قرنين وبدأصلاح الدين يظهر لأهالى الديار المصرية وغير المصرية كبطل من كبار الابطال ولكن هناك من كان يعمل على إعادة الفاطميين وقد حدث فى ذلك الوقت أيضاً ماسبق ان حدث قبل نحو قرن من الزمان بفعل الشاعر المؤيد فى الدين هبة الله

---

(١) تاريخ مسلمى صقلية طبعة ١٩٣٩/٩٣٢ — ج ٣ ص ٥٤٠ ـ ٥٤٣ حيث آمارى يبدى رأيه فيما يختص بسلوك غليالم الثانى .

(٢) المكتبة العربية الصقلية — ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

الشيرازى (الذى نشر ديوانه أخيراً الاستاذ الجليل محمد كامل حسين) وقام فى أيام صلاح الدين بالحركة نفسها شاعر آخر أجنبى عن مصر كان من أهالى اليمن وهذا الشاعر الذى اخذ بيده زمام الحركة هو عمارة بن ابى الحسن ذلك الشيعى اليمنى المتطرف الذى حدثنا عنه حديثا مستفيضاً المستشرق Derenbourg .

وقد بذل المتآمرون على صلاح الدين كل جهودهم لكى يصلوا إلى غايتهم ولم يترددوا فى الاستعانة بملكى صقلية والقدس المسيحيين . وفى نفس الوقت عملوا على إبعاد توران شاه شقيق صلاح الدين من مصر وحسّنوا له أن يتولى قيادة الحملة على بلاد اليمن وكان ممن يشجع على هذه الحملة الشاعر عمارة نفسه . ومع ذلك فان هذه الحملة لم تكن عديمة الفائدة إذ أن الأيوبيين اكتسبوا بها فتوحات عظيمة . وكان المتآمرون فى داخل البلاد على صلاح الدين قد وضعوا برنامجاً يتلخص فيما يأتى :

حينما يغيب صلاح الدين عن القاهرة ليرد المسيحيين الذين ينزلون من سفنهم الى الأراضى المصرية يقوم المتآمرون باثارة الشعب ضده وخلعه وإعادة الملوك الفاطميين . أما إذا فضّل صلاح الدين البقاء فى القاهرة ورأى إرسال جنوده لمحاربة العدو فعندئذ يسهل على المتآمرين القبض عليه .

ولكن صلاح الدين كان رجلا ذكياً ماهراً وكان الحظ يساعده . فمن جهة تقدم اليه زين الدين على بن ناجه أحد الوعاظ الذى عرف بالمؤامرة وتظاهر بالاشتراك فيها وبقى بين المتآمرين لينقل أخبارهم إلى صلاح الدين ومن جهة أخرى استعان صلاح الدين بمسيحى كان يثق به كل الثقة واستطاع هذا أن يقدم له أسماء المتآمرين . وهكذا نجد مسلما ومسيحى من المحتمل كثيراً أن يكونا قد عملا بارشاد ورعاية « القاضى الفاضل » الذى نسب اليه « أبو الفداء » فضل كشف هذه المؤامرة وهذا رغم اختلاف ديانتهما . إذ كان أحدهما من المسلمين والآخر من المسيحيين وكان كل من هؤلاء وهؤلاء يتقاتلون براً وبحراً ولكنهم

كانوا فى كثير من الأحوال سواء فى صقلية أو أفريقيا أو مصر أو الأندلس يتعاونون ويتآمرون ويعملون جنباً إلى جنب وكان تعاونهما فى هذه المرة لمعاونة صلاح الدين .

اكتشفت عندئذ المؤامرة وحكم على مدبريها بالموت كما روى ذلك ابن الأثير وكان يبدو بعد موت هؤلاء المتآمرين أن كل شىء قد انتهى . وبالفعل رأى ملك القدس الانسحاب والعدول عن مهاجمة الاسكندرية . ولكن ملك صقلية غليالم الصالح رأى الاستمرار فى حملته . وفى اليوم السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ (الموافق للثامن والعشرين من يولية سنة ١١٧٤ م) ظهر الأسطول الصقلى أمام شواطىء الاسكندرية وكان يتألف من عدد ضخم من السفن وهذا ما أجمع عليه كل المؤرخين مع خلاف بسيط فى تحديد التاريخ [١] وفى عدد سفن الاسطول ولكن هذا الخلاف ليست له أهمية كبيرة إذ أن الذى يهمنا معرفته هو أن غليالم رغم فشل المؤامرة ورغم القبض على المتآمرين قام بمشروعه مدفوعاً برغبته فى الحصول على المجد والثروة إذ أن المتآمرين كانوا قد زينوا له المشروع ووعدوه بالحصول على أموال كثيرة وأراض واسعة .

وفى الوقت نفسه يدهشنا كل الدهشة السلطان صلاح الدين الذى كان غاية فى الحرص والبراعة إذ لم يُظهر لملك صقلية أن المؤامرة قد فشلت وهذا يجعلنا نعتقد أن الملك الأيوبى لم يكن يخشى ملك صقلية وكان واثقاً من أن فى استطاعته القاؤه فى البحر كما حدث فعلا

وبعد سنين قلائل نجد أن نفوذ الأيوبيين قد انبسط على مسلمى الجزيرة إذ نقرأ فى كتاب رحلة ابن جبير ـ الذى زار صقلية سنة ٥٧٨ هـ (الموافق ١١٨٣م) أن خطبة الجمعه كان يدعى فيها فى مساجد مدينة بالرمو للخليفة العباسى .[٢]

---

(١) راجع فى هذا الموضوع « تاريخ مسلمى صقلية » — ج ٣ ص ٥٢٣ الحاشية .

(٢) المكتبة العربية الصقلية — ص ٩٢ .

وإنى أرى أنه لا حاجة الى تفاصيل الحوادث الخاصة بمهاجمة الاسكندرية لأنه من السهل الاطلاع عليها فى كافة الكتب التاريخية التى وضعها المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين أمثال عماد الدين الاصفهانى الذى كان وزيراً لنور الدين وكاتبا خاصا للملك الأيوبى. وأننا إذا ماضربنا صفحاً عن السفسطائية التى اعتادالمؤرخون أن يحيطوا بها كتاباتهم (ولتكوين فكرة عن هذه السفسطائية يكفى أن نقرأ بعض صفحات من كتاب «الفتح القسى فى الفتح القدسى») وإذا استطعنا أن نستبعد المبالغات التى نجد الكتّاب قد انزلقوا فيها من أمثال أبى شامة المقدسى وعمادالدين الاصفهانى السالف الذكر وابن شداد وابن الأثير حتى المتأخرين منهم لوجدناهم جميعاً متفقين فى سرد تلك الحوادث.

وهناك وثائق أخرى تساعدنا على إيضاح بعض النقاط الغامضة وهى تلك الرسائل التى كتبها القاضى الفاضل أو صلاح الدين نفسه الذى كان يراسل مرة أميراً من أمراء الشام ومرة أخرى خليفة بغداد لأطلاعهما على مجرى الحوادث [1]

ومهما يكن الحال فان أهل الاسكندرية قد أبدوا عند ظهور السفن الصقلية رباطة جأش وشجاعة نادرة المثال ودافعوا عن مدينتهم دفاعاً مجيداً حتى قبل أن يعرفوا بوصول الامدادات اليهم من القاهرة، وأجمل ما نقرأ فى تاريخ ابن الأثير أن الاسكندريين بمجرد أن عرفوا أن صلاح الدين قد وصل إليهم بجيوشه ازدادوا شدة وشجاعة «وزال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله». [2]

ترى ماذا كان مسلك الأفرنج ؟

هذا ما يصوره لنا أيضاً المؤرخ نفسه إذ يقول - سمع الأفرنج بقرب صلاح الدين فى عساكره فسقط فى أيديهم وازدادوا تعباً وفتوراً [3]

---

(١) راجع «تاريخ مسلمى صقلية» — ج ٣ ص ٥٢١ — ٥٢٢ وحواشيها.

(٢) ابن الأثير فى المكتبة العربية الصقلية ص — ٣١١.

(٣) « « « ص — ٣١٢

من هذا يتضح أن سيرة صلاح الدين أصبحت أشبه بالأساطير ودخلت فى عدادها بعد الفترة التى عاش فيها . فمن هذه اللحظة كانت حركاته حركات بطل من الأبطال يثير الحماسة فى صفوف جيوشه ، ويلقى الرعب فى قلوب خصومه واعدائه . وبقية الحوادث معلوم أمرها اذ اضطرت السفن المغيرة بعد ثلاثة ايام من قتال عنيف الى العودة من حيث أتت . وأن موجز هذه الحوادث التى يمكن اعتبارها صفحة من صفحات المجد التى سطرها صلاح الدين فى مصر يدلنا على أمرين :

أولا — نصيب الشعراء فى تدبير المؤامرات والحركات التى كان الغرض منها إحداث الانقلابات السياسية .

ثانياً — مقدار الدعاية الفاطمية العظيمة التى كانت تنتشر فى مصر وكيف كان الفاطميون يستعملون الوسائل فى سبيل انتصار قضيتهم ولو اضطرهم الأمر إلى طلب مساعدة المسيحيين دون تقدير لما يجر ذلك من الأخطار .

وان محاضرتى هذه تكون عديمة الفائدة اذا لم أشر فيها قبل ان أختمها الى أمرين لهما عندى أهمية خاصة ولابد أن يهتم بهما جميع الذين يشرفون هذه القاعة .

الامر الأول هو اننى أريد ان أنبه حضرات الحاضرين لكى ينبهوهم بدورهم ايضاً طلبتهم وزملاءهم إلى أهمية العناية بدراسة تاريخ مسلمى صقلية التى فتح لنا المؤرخ آمارى الطريق اليها . ويجب ألا تكون هذه الدراسة مقصورة على الجانب التاريخى المحض الذى نعرفه جيد المعرفة وخاصة بعد نشر تلك النصوص التى احتواها المجلدان الضخمان المعروفان باسم « الذكرى المئوية لميكيلى آمارى » بل يجب أن تتعدى ذلك إلى الاهتمام بتاريخ الحركة الأدبية والعلمية والثقافية والادارية التى نمت وترعرعت فى الجزيرة فى اثناء الوقت

الطويل الذى عاش فيه المسلمون فى الجزيرة حتى بعد الفتح النورماندى ، وانى أنتهز هذه الفرصة للاشارة الى امر هام وهو أنه إلى اليوم لاتزال دواوين الشعراء : ابن حمديس وعلى البلنوبى (١) وابن قلاقس وغيرهم من امثال ابن بشرون وعبد الرحمن الاطرابنشى وعبد الرحمن بن محمد بن عمر الذين عاشوا فى البلاط الصقلى او الذين زاروا الجزيرة . تكاد تكون مجهولة . وان كل من وصلت الى يديه دواوين الشعراء الثلاثة الاولين او بعض قصائد الآخرين وأبياتهم المشتتة فى بعض المؤلفات وبصفة خاصة فى « الخريدة » لعماد الدين الاصفهانى يمكنهم بكل سهولة ان يلاحظوا أن معرفة مثل هذه الثروة الشعرية أمر ضرورى لإكمال او تصحيح بعض الروايات التاريخية الخاصة بغزوات مسلمى صقليه وفتوحاتهم واننا بعد ان نرجع الى هذه الدواوين والاشعار يمكننا ان نقول اننا قد قمنا بعمل مجيد لتوضيح كل مظاهر الفتح الاسلامى لجزيرة صقلية .

والأمر الثانى الذى ارغب الاشارة اليه — بصفة خاصة — والذى استطيع الانتهاء من محاضرتى بعد الفراغ منه هو ان ادعو الطلبة الى عدم إهمال ذلك العنصر الهام الذى هو جزء لايتجزأ من التاريخ، والمعروف باسم Epigrephy أى الكتابات المنقوشة .

والنقوش العربية لاتزال آثارها باقية فى كافة البلاد التى فتحها المسلمون ، وهى نقوش مكتوبة باللغة العربية التى يقول عنها بحق Van Berchem فى مؤلفه القيم

"Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum"

« إنها لم تعد بعد لغة عامية لقبيلة من القبائل بل إنها أصبحت لغة عالمية وضعتها وظيفتها التاريخية من بعد وفاة النبى محمد إلى أيامنا هذه فى الصف الأول بين طرق التعبير التى عرفتها الانسانية .

وهذا هو السبب الذى من أجله توجد نقوش عربية فى مناطق تمتد من المحيط

(١) وقد أعد المأسوف عليه المستشرق C. Schiaparelli نشر هذا الديوان وترجمته الى الايطالية ولم يطبعا بعد .

المندى حتى سواحل المحيط الأطلسى ومن داخل البلاد المصرية حتى بلاد آسيا الوسطى، وحتى بلاد الصين نفسها لم تخل من هذه النقوش العربية . » (١)

وان النقوش كما قال حضرة عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول عند ما تحدث أخيراً عن (الآثار فى خدمة التاريخ) لتؤدى خدمة نفيسة لفقه اللغة وللتاريخ قبل كل شىء . وهذه النقوش تلقى ضوءاً فى أغلب الأحيان على النظم الدينية والسياسية والادارية والقضائية والعسكرية والتجارية وعلى تاريخ الأزياء والآراء وعلى التثبت من أسماء الأعلام والألقاب الرسمية التى أوجدها الحكام . وإنه ولو أن نصيب النقوش العربية فى هذه الميادين أقل من نصيب النقوش اليونانية واللاتينية إلا أن قيمتها لا تنكر . وإلى جانب الاهتمام بالنقوش يجب الاهتمام بدراسة علم المسكوكات والوثائق وعلى الأخص ما كان منها متصلا بالعلاقات بين أوروبا وبلاد الشرق العربى عامة وخاصة بين بيزا وفلورنسه وجنوه وصقلية وغيرها مع مصر وتونس وبلاد الشام من القرن الثانى عشر إلى القرن السادس عشر .

وقد أدرك مالهذه الوثائق من قيمة جماعة من البحاثين أمثال Van Berchem و Cusa و Nallino و Sauvaire و Lavoix و Amari وغيرهم الذين تركوا بين أيدينا نشرات وتعليقات لها قيمتها العلمية العظيمة التى يجب ألا نتجاهلها والتى ندعو الشبيبة المصرية إلى دراستها ومعرفتها حق المعرفة .

هذا هو أهم ما كان على أن أقوله وإنى لأراه أهم بكثير من تفاصيل الحوادث التاريخية التى أشرت إليها فيما سبق ... وإنى لأرجو فى الختام ألا أكون قد أمللت حضراتكم بحديثى الطويل وبلغتى التى ربما تكون قد جعلتكم تشعرون بالاشفاق على لغتكم العربية الجميلة بعد ان سمعتموها منى ؟

---

(١) باريس سنة ١٨٩٤ — ص ١ و ٢ من المقدمة .

الرواية والنقــــد

عند أبى عبيدة

— ١ —

كانت رواية الشعر لا تعدو ـ أول أمرها ـ أن تكون بابا من أبواب المتعة الفنية ، يتيح للناس أن يطلوا على ذلك العالم السحرى الذى ما يزال يختلب قلوبهم ويفتن ألبابهم . ثم أتيح لهذا الفن فى العصر الاسلامى من ملابسات الحياة الجديدة ماعظم من أمره ، ورفع فوق ذلك من قدره ، وتجاوز به هذه المنزلة . إذ أصبح الى جانب ذلك الاعتبار ضرورة من ضرورات الحس العربى القومى . وقد أخذت مظاهر الحضارة تساوره ، وجعلت أغشية تلك الحياة الجديدة تقوم من دونه ، فكانت رواية الشعر هى الوسيلة التى يجد فيها ذلك الحس حاجته الى مراجعة تلك الحياة البدوية العربية ، وإرضاء روح الحنين التى كانت ما تفتأ تؤزه وتشعره بأشد القلق ، كأنما تريد أن تنتزعه من هذه البيئة الجديدة ، وتمضى به إلى تلك الحياة الأولى التى حيل بينه وبينها ، منذ اجترفت الفتوح هؤلاء العرب عن أوطانهم التى نشأوا فيها ، ثم اجترفتهم ظروف الحياة وملابساتها ، وحصرتهم هذه الدنيا الجديدة فى نطاقها ، فما يملكون عنها حولا . وهكذا جعلت تنبعث نحو تلك البادية التى تركوها ، والعربى من أشد الناس حنينا الى وطنه ، فكانت رواية الشعر إحدى الوسائل السهلة القريبة التى أخذت تنهنه من ذلك الحنين ، وتستجيب لتلك الحاجة النفسية الملحة ، إذ كانت النافذه التى أتيحت لهم فى ذلك الحجاب الكثيف ، يطلون منها على البادية ، ويستحضرون من خلالها صور تلك الحياة الأثيرة . ثم كانت ـ إلى جانب ذلك أيضا ـ أداة من الأدوات التى يعتصم بها الحس العربى القومى لقاء تلك الأحاسيس الكثيرة الغامرة التى جعلت تأخذه من هنا وهنا

وإذن فقد كانت رواية الشعر نوعا من الاستجابة الطبيعية للحس الفنى العربى ، وبذلك كانت سبيلها الأولى سبيلا فنية خالصة أو قريبا من ذلك . ولكن هذه الحياة الجديدة لم تلبث أن تعقدت أسبابها وتنوعت صورها ، وتشعبت بها المسالك المختلفة . فكان لابد لفن «الرواية» من أن يسلك سبيلها ، ويخضع لما جعلت هذه الحياة تخضع له . وكذلك لم تلبث أن رأينا هذه السبيل التى اتخذتها رواية الشعر تذهب فى اتجاهين ، وتتشعب شعبتين : شعبة فنية تهدف الى تذوق الشعر وإرضاء الحاسة الأدبية ، وشعبة علمية يتولاها العلماء من أصحاب العربية ، ويقصدون فيها إلى الدرس العلمى خالصا ، ويتخذون فيها من هذه « الرواية » أداة لهم ، ويخضعونها لمناهجهم المختلفة فى البحث

فأما الاتجاه الأول ، وهو الاتجاه الفنى ، فإن الفرق كبير بين ماصار اليه وما كان عليه . ذلك أن الأدب العربى لم يعد - كما كان الأمر من قبل - أدب العرب وحدهم ، ولم تعد الحوافز الفنية - سواء فى قول الشعر أم فى الاستماع إليه والاستمتاع به - حوافز عربية خالصة ، فقد أخذت الحياة الأدبية تخلص من هذه الارستقراطية التى فرضت - بطبيعة الأمر - عليها من قبل ، وجعلت الحياة الجديدة بصورها وألوانها واتجاهاتها تداخلها وتشارك مشاركة قوية فى توجيهها ، وأصبح للمشاعر التى أنشأتها هذه الحياة أثرها البالغ فيها . فقد كان لابد لذلك كله أن تنحرف رواية الشعر بقدر هذا عن الغاية التى كانت تتجه اليها وتنزع لتحقيقها ، وأن يتغير تبعا لذلك الطابع لذى كان يطبعها ، فتصطنع طابعا آخر يتجاوب مع هذه المشاعر الجديدة ، ويحقق لها المتاع الفنى الذى ترجوه وتستشعر الحاجة اليه

وكما كانت هذه الجماعة الجديدة مزاجا لم ينضج بعد ، ولم يتم ائتلاف مكوناته على وضع ثابت مستقر ، كذلك كانت مشاعر القوم ، وكذلك كانت نزعاتهم فى رواية الشعر وتذوقه مضطربة مختلطة ، لا تكاد تستقر على وضع معين ، أو تتجه الى غاية ثابتة ، إذ كانت العوامل الباطنية التى توجههم وتلون ذوقهم الأدبى مضطربة ، وبذلك

أخذت رواية الشعر فى ذلك الاتجاه الفنى أنماطا مختلفة متلاحقة يتبع بعضها بعضا ، ولا يلبث اللاحق أن يغشى السابق ويبطله ويعفى عليه

وذلك عندنا هو تأويل عبارة الجاحظ التى أوردها فى كتابه « البيان والتبيين » عن هذا النوع من الرواية ، إذ يقول :

«وقد أدركت رواة المربديين والمسجديين ، ومن لم يرو أشعار المجانين ، ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب ، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والاشعار المنصفة ، فإنهم لا يعدونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ، ووقعوا على قصار الأحاديث والقصائد ، والفقر والنتف من كل شى ولقد شهدتهم وما هم على شىء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الاعراب ، حتى صار زهدهم فى نسيب العباس بقدر رغبتهم فى نسيب الأعراب . ثم رأيتهم منذ سنيات وما يروى عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ فى طلب الشعر ، أو فتيانى متغزل » [1]

ولاريب أن هذه الجملة من كلام الجاحظ تنطوى على أحاديث طويلة عن العوامل المختلفة التى كانت تسيطر على الاتجاه الفنى للرواية وتوجهه فى هذه الفترة المضطربة ، ولكن ليس هذا موضع الكلام فى هذه العوامل ، وإنما حسبنا ما أوردنا عن ذلك الاتجاه

فأما الاتجاه الآخر ، وهو الاتجاه العلمى الذى جاء نتيجة لتطور الجماعة الاسلامية ، حيث أخذت الحياة العلمية تفرض نفسها ، وأخذ الشعر يصبح مادة من مواد هذه الحياة وموضوعا من موضوعاتها ، فقد كان أمراً لابد منه ، ولا محيص فى طبيعة الأشياء عنه . وبذلك أخذت رواية الشعر مكانها فى الدراسات العربية ، وقد كان لهذه الدراسات أوفر نصيب فى تلك الحياة ، فلاجرم كان للرواية مكانها الظاهر الممتاز .

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٣٥ ، ط مصطفى محمد ، القاهرة ، ١٩٣٢ م

ولكنها أصبحت بذلك خاضعة للأهداف المختلفة التى تهدف هذه الدراسات اليها ، ولكل هدف منها منهجه وأسلوبه ، فاختلفت بذلك اعتباراتها ، وكثرت وجهات النظر المختلفة لها : كل يراها بعينه ، وينظر اليها من ناحيته ، ويقدرها بقدر حاجته ، ويطلب اليها ما يدخل فى نطاق بحثه ودراسته ، وبذلك أيضا أصبحت موزعة بين هذه المناهج المختلفة لعلوم العربية من لغة ونحو وخبر ، كما أصبحت حميلة على هذه الفنون ، تابعة لها ، متأثرة بأغراضها وطوابعها . وقد اعتبرها كل أداة من أدواته، ووسيلة من وسائله .

ولهذا الاتجاه موضعه أيضا فى كتاب «البيان والتبيين» ، ونصيبه من كلام شيخنا الجاحظ عنه ، وتعريفه به ، ووصفه وصفا خليقا بأن يبعث على التأمل ، إذ يقول :

« ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل . ورأيت عامتهم - فقد طالت مشاهدتى لهم - لا يقفون على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الاقلام على مدافن الألفاظ ، واشارت إلى حسان المعانى . ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام فى رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أغلب . ولقد رأيت أبا عمرو الشيبانى يكتب أشعارا من أفواه جلسائه ليدخلها فى باب التحفظ والتذاكر . وربما خيل إلى أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبدا أن يقولوا شعرا جيدا لمكان اعراقهم فى أولئك الآباء ، ولولا أن أكون عيابا ، ثم للعلماء خاصة ، لصورت لك فى هذا الكتاب بعض ما سمعت من أبى عبيدة ، ومن هو أبعد فى وهمك من أبى عبيدة »[1]

---

(١) المصدر نفسه ٣ : ٢٣٦

فهذا هو مجمل القول فى أمر رواية الشعر فى هذه الفترة ، كما يمكن أن تعرف من أخبارها ، وكما يؤديه إلينا الجاحظ عنها ، عن مشاهدة وتتبع وخبرة وبصيرة ثاقبة نافذة ، ثم كما تقتضيه طبيعة الأشياء ومنطق الأمور . فماذا كان موضع أبى عبيدة منها ، وفى أى منزلة نستطيع أن ننزله بين هذه الأنماط المختلفة فيها ؟

— ٢ —

لقد كانت رواية الحياة العربية على النحو الذى اصطنعه أبو عبيدة ، فى حذق وبصيرة ودقة ، هو الموضوع الذى أشربه فى قلبه ، فعرف به ، واستفاضت به شهرته ، وتميزت به فى نظر الناس شخصيته ، إذ كان قد بلغ منه المبلغ الذى لم يستطع أحد من معاصريه أن يجاريه فيه ، أو ينافسه عليه . منافسة يمكن أن تلحقه به . ولعل ذلك هو تأويل كلمة الجاحظ المشهورة فى إجمال صفته : «ولم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه» [١] . فالعلم الذى يعنيه أبو عثمان هنا هو ـ فيما نحسب ـ علم الأخبار ، إذ لا يمكن أن يكون العلم على إطلاقه . ومثل هذا عبارة أبى نواس ، وهو أحد تلاميذه ، فى سياق المقارنة بينه وبين الأصمعى ، انه «أديم طوى على علم» [٢] . ثم مايقوله عنه عالم أهل الكوفة فى القرن الثالث ، أبو العباس ثعلب ـ كما يحكيه عنه ياقوت فى سياق ترجمته لأبى عمرو الشيبانى ـ انه «لم يكن فى أهل البصرة مثل أبى عبيدة فى السماع والعلم» . ثم ما يعقب به ياقوت على هذه الكلمة المنصفة ، وإن كنا نلمح فى خلالها روح العصبية تسرى وتترقرق ـ ونحن نعرف بعد مبلغ اطلاع صاحب المعجم على التراث الأدبى فى عصره ـ وذلك إذ يقول فى تعقيبه هذا : «إنى لا أقول إن الله خلق خلقا كان أوسع رواية وعلما من أبى عبيدة» [٣]

---

(١) المصدر نفسه ١ : ٢٧٤ ، وانظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٣ : ٢٥٢ ، ط السعادة ، مصر ، ١٩٣١ م ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٩ : ١٥٦ ط دار المأمون ، مصر ، ١٩٣٨ م

(٢) معجم الادباء ١٩ : ١٥٥

(٣) المصدر نفسه ٦ : ٨٢ . وعبارة أبى العباس ثعلب نقلها ياقوت ـ فيما يبدو ـ عن الخطيب البغدادي ، فى تاريخ بغداد ٦ : ٣٣٠

فهذه هى الجهة الأولى والصفة الرئيسية فى شخصية أبى عبيدة العلمية: تمثل الحياة العربية تمثلا صادقا دقيقا محيطا بها، ورواية هذه الحياة رواية الرجل الثقة البصير المستبطن لها، المتعقب لأخبارها

وإذن فقد كان أبو عبيدة من طبقة رواة الاخبار الذين عرف الجاحظ بهم، وذكر بعض خصائصهم، فى تصنيفه الذى أوردناه آنفا . وذلك ـ ولا ريب ـ هو الأصل الأول الذى تجىء بعده وتصدر عنه سائر نواحيه الأخرى. ومنها الناحية التى عقدنا هذا الفصل لها، وهى «رواية الشعر». فهى فى حقيقة الأمر تبع لذلك الأصل، وصادرة عنه، وراجعة اليه. وقد أتيح لنا فى غير هذا الموضع أن نفصل القول بعض الشىء فى بيان الصلة بين الأخبار والأقاصيص التى ترددها البادية وبين الشعر، ورأينا أنهما وجهان فى رواية الحياة العربية يقوم بينهما نوع من الصلة وثيق، يصدر عن تلك الملابسات التى أوردنا اذ ذاك طرفا منها [1]. وقد كانت هذه الصلة ـ ولا ريب ـ مما فتح لأبى عبيدة سبيل «رواية الشعر»، وأتاح له بذلك أن يذكر بين رواة الشعر وعلمائه وأصحاب النظر فيه

وأخرى أن أبا عبيدة نشأ نشأته الأولى حين كانت البصرة ما تزال جنباتها تتجاوب بأصداء تلك الخصومات الشعرية التى كان يمثلها جرير والفرزدق والأخطل وأشياعهم، وكانت البيئات العلمية فيها ما تزال مأخوذة بتلك الحركة القوية، تتخذ منها موضوعا خصبا لدراساتها، لا تقتصر فيه على رواية شعر هؤلاء الشعراء وشرحه والموازنة بينه، والمفاضلة بين هذا الشاعر وذاك، وإنما تمضى إلى ما وراء ذلك وتتجاوزه إلى النظر فى مذاهب هؤلاء الشعراء أو انماطهم التى يتخذونها فى قول الشعر وصياغته، وفى الأصول الفنية الأولى التى يرجعون اليها ويمتون بها، وتحاول أن ترجع كل نمط من هذه الأنماط الشعرية إلى ما هو أشبه به وأدنى اليه فى الشعر الجاهلى. فجرير ـ مثلا ـ اشبه بالأعشى، والفرزدق أشبه بزهير، والأخطل بالنابغة الذبيانى

---

(١) مجلة الكاتب المصرى، المجلد الثانى، العدد ٦ و ٧ (مارس، ابريل ١٩٤٦ م)

وما كان لأبى عبيدة - وقد نشأ فى ذلك الجو، وجلس إلى تلك الحلقات، وكان له ذلك الطموح الأدبى - إلا أن يجعل رواية الشعر من الغايات التى يقصد اليها ويعنى بها، وأن يتخذ اليه الوسيلة، فيلتمسه كما يلتمس الأخبار، عند هؤلاء الشيوخ من ناحية، وعند رواة الاعراب الذين مازالوا يفدون على البصرة، من ناحية أخرى.

وكذلك استطاع أن يعقد أسبابه بطائفة من هؤلاء الرواة من أهل البادية، ممن كان أكثر اتجاههم إلى رواية الشعر، ثم يجىء الخبر تابعا له، كجويرية بن أسماء صديق كثير بن عبد الرحمن الشاعر وراوية شعره، ومثل هذين الأخوين اللذين يدينان بما صار لهما فى هذه البيئات من مكانة أدبية لصلتهما بجرير الشاعر، وهما: مسحل بن كسيب بن عمران بن عطية بن الخطفى، وأخوه أيوب، ومثلهما فى ذلك أبو دؤاد بن متمم بن نويره، أبوه متمم بن نويره اليربوعى الشاعر الصحابى، وعمه مالك بن نويره صاحب الخبر المشهور فى أيام أبى بكر. ومن هؤلاء الرواة أيضا أيوب بن صبره حفيد الشاعر الخارجى المشهور: الطرماح بن حكيم، إلى غيرهم ممن اتصل بهم أبو عبيدة، وكان حريصا على أن يتلقى عنهم، ويجعل منهم مصدراً من مصادره الأصيلة

وبذلك كانت له منزلته فى رواية الشعر، إلى جانب منزلته فى رواية الخبر

وما ندرى أكان أبو عبيدة يطلب الشعر ويلتمس رواته ليحقق لنفسه أداة من أدواته فى رواية الحياة العربية، كما تتمثل فى الأخبار والقصص، أم كان يطلبه ليكون راوية من رواته، كما كان حماد الراوية فى الكوفة، وكما كان خلف الأحمر فى البصرة. وسواء أكان هذا أم ذاك، فإن استعداده الطبيعى ومواهبه فى تذوق الشعر لم تكن بحيث يتهيأ له أن يكون راوية من رواته كما كان حماد وخلف، فقد كانت تقصر به عن هذه الغاية، بقدر ما كانت مواهبه فى القصص العربى تسمو به صعداً وتذهب به بعيداً، حتى ما يكاد يلحقه فيه لاحق. وبذلك كانت منزلته فى رواية الشعر فى المكان الثانى بالقياس إلى رواية الأخبار، وظل الشعر بالنسبة اليه أداة من أدواته، على النحو الذى يقرره الجاحظ عن هؤلاء الرواة فى النص الذى أوردناه.

ولكن ينبغى أن نقرر هنا أن هذا الحكم ليس على إطلاقه فيما يخص أبا عبيدة ذلك أنه لم يكن من رواة الأخبار بالمعنى القريب اليسير، فيكفيه من القصة أن يروى حوادثها، ويسوق أجزاءها، كيفما اتفق له، ويظفر من ذلك بإرضاء النزوع الساذج عند العامة. وإنما كان - كما أتيح لنا أن نرى من قبل - يتعمق ويتغلغل ويستقصى لالتماس المقومات المختلفة للحياة العربية، حتى يستطيع أن يتمثلها تمثلا صادقا شاملا دقيقا، ويتعرف جو هذه الأقاصيص تعرفا مستبصراً دائباً، حتى يحيط بوجوهه المختلفة. وقد يكون فى تلك الأخبار، مع هذا التقصى، ما يتيح له بعض ذلك، ولكن هنالك - ولا ريب - ما لا يتيحه له غير شعر هؤلاء الشعراء الذين عاشوا فى ذلك الجو وانطبعوا به، ولايكاد يجد الوسيلة اليه فى غير تلك الصور الشعرية التى تعبر عنه تعبيراً دقيقا، وتصوره تصويرا حيا نابضا. وبذلك كانت دواعى أبى عبيدة إلى رواية الشعر لاتقف عند المقتضيات القريبة لرواية الخبر، كما هو الشأن فى عامة الرواة. وجدير بمثل هذا الاعتبار أن يرفع من مكانته فى رواية الشعر، ويميزه فيها عن غيره من رواة الأخبار

وكما كان لهذا الاتجاه أثره على ذلك النحو فى رواية أبى عبيدة للشعر، كذلك كان له أثره فى مبلغ فهمه له، وإدراكه لمعانيه. ذلك أن تمثله للحياة العربية الجاهلية هذا التمثل، وإحاطته نفسه بصورها ومدركاتها، واستغراقه فى ذلك، من شأنه أن يجعله أدنى الى فهم الصور الفنية الصادرة عنها، وأدق فى إدراكها، إذ يجعل معرفته للغة بدلالاتها الافرادية والتركيبية معرفة حية متصلة عنده بحقائقها، لا معرفة حفظ وتلقين فحسب. ولو أنه اتخذ هذه الحاسة اللغوية الدقيقة المستبطنة لحقائق الدلالات مصدره الأول ومرجعه الأكبر فى تفسير معانى الشعر وبيان وجوهه، لبلغ فى ذلك مبلغا ممتازا، وإن ما بقى لدينا من تفسيراته الموثوق بها ليدلنا هذه الدلالة. ولكن الرجل كان - فيما يبدو - مفتونا بما أصابه من توفيق فى الناحية الاخبارية، فحمله ذلك على أن وضع الأخبار والأقاصيص فى المكان الاول فى تفسير الشعر، وإن كانت مما يحتمل الوضع والصناعة والتلفيق، وكانت تفسيراته بذلك عرضة للضلال

والخطأ . ولولا أن الأصل فيه والناحية الاولى فى شخصيته العلمية هى رواية الأخبار لا رواية الشعر ، لكان الأجدر به ، والأولى أن يكون فى المكان الاول عنده . فى فهم الشعر وتفسيره ، هو ذلك الذى أتيح له من معرفة اللغة معرفة حية ، اجتمعت لها عناصر الحياة من هذه الدراسات التى أخذ نفسه بها ، واستغرق أعظم الاستغراق فيها

— ٣ —

وبعد فهذه وجهة أبى عبيدة فى رواية الشعر ، وتلك هى سبيله اليه ، وذلك مبلغ ما أتيح له منه ، ولا ريب أن لهذا أثره المباشر فى توجيه نزعته النقدية ، وفيما أثر عنه من أحكام أدبية

فهناك أثر عام لاصطناع رواية الأخبار هو الذى أشار اليه الجاحظ من الصدوف عن مواطن الجمال الفنى فى الأثر الأدبى أو الشعرى ، والغباء عن دقائق الفتنة التى يتضمنها ، سواء فى لفظه أم فى أسلوب صياغته ، أم فى توقيع موسيقاه ، أم فى دلالته ومعناه ، الى غير ذلك من مثارات الروعة الفنية . كأن انصراف الراوية الاخبارى الى تتبع الأخبار وتقصيها وتلقفها يفقده ملكة التذوق الأدبى ، والقدرة على ملاحظة الخصائص الفنية التى يمتاز بها الشعر ، إذ كانت هذه الخصائص أموراً ليست من ظاهر الحياة التى تصدر هذه الأخبار - فى الجملة عنها - ولكنها من باطن الروح ، وإذ كانت الوسيلة الى إدراكها ليست الحواس الظاهرة ، بل المشاعر الخفية الباطنة . وإذ كان هؤلاء الأخباريون ، أو عامتهم ، إنما يعيشون فى عالم من الحوادث يتتبعونها ، وشتان بين هذا الذى يعيشون فيه ، ويغمرون مداركهم به ، وبين عالم المعانى ودقائق الشعر ولطائف البيان

فذلك هو الأثر العام لرواية الأخبار ، وتلك هى جملة القول فى تكييف موقف الراوية الاخبارى من الشعر . وضرب الجاحظ المثل لذلك - كما رأينا - بأبى عمرو الشيبانى الكوفى ، معاصر أبى عبيدة ، فى إشارته العابرة اليه ، وقد ذكر قصته فى موضع آخر ، وهى تفصل لنا ما أجمله من الرأى هناك ، وتوضح ما أشار اليه ، كما تبين لنا مبلغ ماجنت رواية الأخبار على تذوق الشعر . قال :

« وانا رأيت أبا عمرو الشيبانى ، وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ، ونحن فى المسجد يوم الجمعة ، أن كلف رجلا حتى أحضره دواة وقرطاسا ، حتى كتبهما له . وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لايقول شعراً أبداً . ولولا أن أدخل فى الحكم بعض الغيب ، لزعمت أن ابنه لايقول شعراً أبداً . وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى ... فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ، ولكن ذا ... أفظع من ذاك لذل السؤال »

ثم يقول الجاحظ فى التعقيب على هذا : « وذهب الشيخ الى استحسان المعنى ، والمعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها العربى والعجمى ، والبدوى والقروى . وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع وجودة السبك . فانما "شعر صياغة وضرب من النسج وجنس من التصوير »[1]

وإذن فهؤلاء الأخباريون الذين يمثلهم أبو عمرو الشيبانى إذا اتجهوا إلى الشعر ونظروا فيه ، فإنما يقفون عند هيكله العام وخطوطه الأوليـة الظاهرة ، وكأنهم لايرون فيه إلا مايعتبرونه فى الخبر ، فهم يخضعون لذلك المقياس ، فأما ماوراء ذلك الهيكل العام والمعنى « المطروح فى الطريق » من الخصائص الفنية التى لا يكون الشعر شعراً إلا بها ، فذلك بما صرفهم عنه ، وباعد بينهم وبينه ، ذلك الجو الذى أحاطوا أنفسهم به ، وطبعوا حياتهم العقلية بطابعه ، وخضعوا لمقتضياته وملابساته ، وهو جو الأخبار والحوادث

ولاريب أن روح الفن يمكن أن تداخل كل شىء فى الحياة . فكما أن للشعر فنيته التى تتمثل فى تلك الدقائق التى أشار الجاحظ إليها ، فللأخبار أيضا فنيتها فى السياق والسرد والتنظيم والتنسيق وجودة العرض ومراعاة النسب وإظهارها فى صورة أدنى إلى الحياة وأقرب إلى مداخلة النفس . ولكن هذا شىء وذاك شىء آخر . وقد يكون

---

(١) الحيوان للجاحظ ٣ : ١٣١ ، نشرة عبد السلام هارون ، ط مصطفى البابى الحلبى مصر ، ١٩٣٨ م ، وانظر : دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٨٥ ، نشرة رشيد رضا ، ط الموسوعات ، ١٣٢١ هـ

الرجل عظيم الحظ جليل الموهبة فى فن القصص ، دون أن يكون له فى فن الشعر ولا فى تذوقه واستبطان لطائفه والاهتزاز لروائعه نصيب ، ودون أن يكون فى هذا ما يمكن أن يضع من شأنه أو يغض من منزلته . وقد رأينا كيف كانت روح الفن الأخبارى تكاد تبلغ ذروتها عند أبى عبيدة فى عصره . ولكن ذلك لا يقتضى أن تكون له هذه الروح الفنية فى تذوق الشعر ، وهو الأمر الذى يبدو لنا من خلال درسه ، بالرغم مما نعرف معرفة اليقين من حسن فهمه له ، وقد اجتمع له كثير من وسائله ، ولكن الفهم مرحلة دون مرحلة التذوق . وقد كان تلميذه أبو حاتم السجستانى يقول فى صفته إنه « كان مع علمه إذا قرأ البيت لم يقم إعرابه ، وينشده مختلف العروض » [1] . ولهذا دلالته على مقدار حظ أبى عبيدة من الذوق الفنى الشعرى . وقد رأينا الجاحظ مع ما يبدو من شدة إعجابه به ، ومبالغته فى الثناء عليه ، لا يسلم له هذه الناحية ، فهو يغمزه ويعرض به فى سياق حديثه عن مبلغ تذوق الأخباريين للشعر ، وما يمنعه من التصريح برأيه وتصوير أمره إلا ما يضمر من إجلاله له وإكباره لعلمه ، وما يحس من الحرج فى مثل ذلك

فأبو عبيدة لم يكن ، إذن ، بدعا بين رواة الأخبار ، من ناحية الذوق الفنى . وإذ كان الذوق الفنى هذا هو الأصل فى ملكة نقد الشعر ، فإننا نستطيع أن نخلص الى القول فى غير تحرج أن أبا عبيدة على جلالته فى الناحية العلمية ، لم تكن له هذه الملكة ، كما نستطيع القول بان ما كان يتكلفه من نقد الشعر والموازنة بينه لم يكن يصدر فيه عن طبع أصيل فى النقد ، وانما هو ـ فى حقيقة أمره ـ نقد رجل عالم يرجع فيه إلى آراء شيوخه وأساتذته ، كأبى عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ، أو يخضع فيه لبعض الاعتبارات الشكلية التى لا تكاد تمت بسبب الى الاصالة الفنية

وبهذا الاعتبار كان رجل كأبى نواس ـ وهو تلميذه ومن نعرف فى إكباره له ـ ينظر إلى أحكامه الأدبية بشىء من الاستخفاف ، فلا يكاد يقيم لها وزنا . فقد سئل

---

(١) معجم الادباء ١٩ : ١٥٦

ابو نواس مرة عن جرير والفرزدق أيهما أشعر ، فقضى لجرير وفضله على الفرزدق ، كما يحكى صاحب العمدة . فقيل له : إن أبا عبيدة لا يوافقك على هذا . فقال : ليس هذا من علم أبى عبيدة

وكثير من أحكام أبى عبيدة الأدبية تجىء فى الرواية مسندة الى هذا أو ذاك من شيوخه ، على أنا قد نقع أحيانا على شىء من هذه الاحكام يجىء مجردا من ذلك الأسناد ، فيقع فى الوهم لأول وهله ، أنه حكم له قد استقل بالرأى فيه . ونجد لذلك مثلا فيما ذكره الجاحظ - فى سياق كلامه عن الضب - عقب إيراده هذه القطعة من شعر امرىء القيس ، فى وصف الغيث :

ديمة هطلاء فيها وطف	طبق الأرض تحرى وتدر
تخرج الضب اذا ما أشجذت	وتواريه اذا ما تعتكر
وترى الضب ذفيفا ماهراً	ثانيا برثنه ما ينعفر

فقال أبو عثمان فى عقب ذلك : « وكان أبو عبيدة يقدم هذه القصيدة فى الغيث على قصيدة عبيد بن الأبرص ، أو أوس بن حجر ، التى يقول فيها أحدهما :

دان مسف فويق الأرض هيدبه	يكاد يدفعه من قام بالراح
فمن بنجوته كمن بعقوته	والمستكن كمن يمشى بقرواح

وأنا أتعجب من هذا الحكم » [1]

فهذا الحكم الأدبى الذى يحكيه الجاحظ عنه فى المفاضلة بين هاتين القطعتين يبدو بادىء الرأى أنه صادر عنه ، وأنه مستقل به . وقد اكتفى الجاحظ فى التعليق عليه بالتعجب منه ، على أنا نستطيع بشىء من التتبع أن نعرف من أين صدر أبو عبيدة بهذا الحكم الذى يتعجب منه أبو عثمان ، فهاهوذا صاحب «الشعر والشعراء» يحكى فى الفصل الذى عقده لامرىء القيس هذا الخبر : « قال يونس النحوى : قدم علينا ذو

(١) الحيوان ٦ : ١٣١ - ١٣٢

الرمة من سفر ، وكان أحسن الناس وصفا للمطر ، فذكرنا له قول عبيد وأوس وعبد بني الحسحاس في المطر ، فاختار قول امرىء القيس :

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الارض تحرى وتدر »[1]

فهو - كما نرى - مقلد في هذا الحكم الذي كان الجاحظ يتعجب منه ، كما هو في معظم أحكامه الأدبية ،ولكنه مع هذا مقلد في حدود هذه الشخصية العلمية التي تكونت بين صور الحياة العربية الصميمة وآثارها الادبية التي تحمل طابعها وتتسم بخصائصها ، فهو في الواقع تقليد تلونه هذه الشخصية بلونها ، وتخضعه قدر ماتملك لطبيعتها ومزاجها

ومن هذا مانلاحظه في جميع هذه الأحكام الأدبية ،سواء مايبدو أنه مستقل فيها ، أم مايصدر عن غيره في إقرارها ، ففي جميع هذه الاحكام يبدوا نه من المحافظين الذين يؤثرون القديم ، ويعتبرونه المثل الذي لابد للشاعر المجيد من احتذائه ورعاية خصائصه . وبذلك لم يكن يرى من شعراء الاسلام أحدا جديرا بوصف الشعر غير الشعراء الثلاثة : الأخطل وجرير والفرزدق[2]، لأن الأخطل - كما كان يقال في مجلس أستاذه أبي عمرو بن العلاء - يشبه النابغة ، ولأن جريرا يشبه الاعشى ، ولأن الفرزدق يشبه زهيرا [3] . أما أول هؤلاء الثلاثة مكانا عنده فالأخطل ، لأنه - كما يحكى صاحب الاغاني عنه - « اشبه بالجاهلية . وأشدهم أسر شعر ، وأقلهم سقطا »[4] فالمقياس الأدبي عنده هو الشعر الجاهلي بتلك الصفات الغالبة عليه ، من قوة الأسر وإحكام الديباجة في تركيب الجملة وبناء القصيدة ، ومن الروح البدوية في الصور

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ : ٥٨ ، ط دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٤ هـ

(٢) « شعراء الاسلام الأخطل ثم جرير ثم الفرزدق » الاغاني ٨ : ٢٨٦ ، ط دار الكتب المصرية

(٣) انظر مثلا : الأغاني ٨ : ٥

(٤) المصدر نفسه ٨ : ٢٩٢

الشعرية ، وعلى مبلغ توفيق الشاعر فى التوفية لهذه الصفات ومجاراة هذه الروح تكون مكانته الشعرية فى اعتبار هذه المدرسة التى ينتسب اليها أبو عبيدة

وليست الجاهلية التى يصطنع منها هذا المقياس زمنا معينا ، بل هى عنده ذلك الأسلوب وهذه الخصائص ، فاذا خرج شاعر جاهلى عليها أو انحرف عنها ، فليس هناك ، كعدى بن زيد العبادى ، فهو فى رأيه أو فى رأى هذه المدرسة « فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم : يعارضها ولا يجرى مجراها »[1] . ولعل فى هذه القصة التى يوردها صاحب الامالى ما يزيد هذا المذهب عنده وضوحا :

« قال ابوحاتم : اتيت أبا عبيدة ومعى شعر عروة بن الورد ، فقال لى : مامعك؟ فقلت : شعر عروة . فقال : فارغ حمل شعر فقير ليقرأه على فقير . فقلت له : مامعى غيره ، فأنشدنى أنت ما شئت . فأنشدنى :

يارب ظل عقاب قد وقيت بها	مهرى من الشمس والأبطال تجتلد
ورب يوم حمى أرعيت عقوته	خيلى اقتصارا وأطراف القنا قصد
ويوم لهو لأهل الخفض ظل به	لهوى اصطلاء الوغى وناره تقد
مشهرا موقفى والحرب كاشفة	عنها القناع وبحر الموت يطرد
ورب هاجرة تغلى مراجلها	مخرتها بمطايا غارة تخد
تجتاب أودية الافزاع آمنة	كأنها أسد تقتادها أسد
فان أمت حتف انفى لا أمت كمدا	على الطعان وقصر العاجز الكمد
ولم أقل : لم اساق الموت شاربه	فى كأسه والمنايا شرع ورد

ثم قال : هذا الشعر ! لا ما تعللون به أنفسكم من اشعار المخانيث »[2]

فأبو عبيدة يرفض - فى هذا الخبر - شعرا جاهليا هو شعر عروة بن الورد ،

(١) المصدر نفسه ٢ : ٩٧

(٢) الأمالى لأبى على القالى ١ : ٢٦٥ - ٢٦٦ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ م

ويؤثر عليه شعرا إسلاميا هو شعر قطرى بن الفجاءة . والعلة الظاهرة فى ذلك ان شعرقطرى هذا أكثر جاهلية فى صياغته وصوره ، وأشد تحقيقا لمعانى الحياة البدوية والفروسية العربية ، من شعر عروة . وإن كان ينبغى ألا نغفل شيئا آخر قد يكون له أثره فى هذا الإيثار الى جانب مايبدو لأول النظر ، وهو أن قطرى بن الفجاءة شاعر خارجى ، وأبو عبيدة معروف بنزعته الخارجية ، وهى النزعة التى ترجع عندنا - فى بعض ماترجع اليه - الى ذلك المزاج البدوى الذى كونته له حياته العقلية الطويلة بين صور البداوة وآثارها واستغراقه فيها . فالامر - كما نرى - قريب بعضه من بعض . إذ كانت خارجية أبى عبيدة ليست فى اكثر أمرها إلا مظهرا من مظاهر التوجيه البدوى عنده

ولعل ذلك كان من أول الاسباب التى جعلته لا يكاد يرى فى الشعراء المحدثين أحدا أجدر بوصف الشعر من السيد الحميرى وبشار بن برد [1] . فهما عنده أشعر هذه الطبقة من الشعراء ، ونستطيع أن نقدر هذا على وجهه اذا نحن عرفنا أن هذين الشاعرين كانا أحرص أهل طبقتهما على الخصائص التقليدية للشعر العربى . فأما السيد فكان - فيما يبدو لنا - أطبع أهل عصره على الاسلوب البدوى ، حتى كان الاصمعى على تجافيه عنه ، وإنكاره لمذهبه السياسى الذى كان يتمثل فى شعره ، يقول عنه : «قبحه الله ! ما أسلكه لطريق الفحول ! لولا مذهبه ولولا مافى شعره ماقدمت عليه أحداً من طبقته » [2] . وكذلك كان رأى العتبى فيه ، اذ يقول عنه : « ليس فى عصرنا هذا أحسن مذهبا فى شعره ، ولا أنقى الفاظا من السيد »[3] . وحكى غانم الوراق أنه خرج الى بادية البصرة ، فصار إلى عمرو بن تميم ، فجعل ينشدهم لذى الرمة وجرير ، ثم أنشدهم للسيد . قال : « فجعلوا يمرقون لانشادى ويطربون . وقالوا :

---

(١) انظر : الاغانى ٧ : ٢٣٢

(٢) المصدر نفسه ٧ : ٢٣٢ ، وانظر رواية أخرى عن التوزى أيضا بعد هذا الموضع ٧ : ٢٣٦

(٣) المصدر نفسه ٧ : ٢٤٧

لمن هذا ؟ فأعلمتهم . فقالوا : هو والله أحد المطبوعين . والله ما بقى فى هذا الزمان مثله » [1]

فذلك هو ما جعل أبا عبيدة يقبل على شعر السيد الحميرى ويكثر من روايته ، ويقدمه ، بالرغم من مخالفته له فى المذهب السياسى . وأما بشار فكذلك كان شأنه فى جملة القول ، حتى كان الاصمعى يجعله خاتمة الشعراء ، وإن كان ينزع بشعره فى بعض الاحيان نزعة تجديدية . ويبدو لنا أنه كان هنالك نوع من الصلة الشخصية بين أبى عبيدة وبشار ، وأنه كان لهذه الصلة شىء من الأثر فى إعجابه به وتقديمه له . ولكننا لا نشك فى أن سلوك بشار بشعره مسلك الشعراء المتقدمين ، كان من أول الاسباب التى ذهبت بأبى عبيدة الى ذلك المذهب فيه . ولقد كان شديد الإعجاب بميميته :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل بسالم [2]

ونحن نعلم أن هذه القصيدة كانت من أحسن شعر بشار وأشده إحكاما ورصانة عبارة ، وإيثارا للديباجة العربية القوية الصريحة ، كما أنها كانت تقترن فى منهجها الفنى بميميتى جرير والفرزدق :

— تحن بزوراء المدينة ناقتى ... حنين عجول تبتغى البو رائم
— ألا حى ربع المنزل المتقادم ... وماحل مذحلت به أم سالم [3]

فأكبر الظن عندنا أنه كان لصياغة هذه القصيدة ، وذهابها مذهب شعر جرير والفرزدق ، من أول ما أنزلها تلك المنزلة فى نفس أبى عبيدة ، إلى جانب ما كانت تسبغه عليها الظروف الملابسة لإنشائها فى البصرة ، والحالة النفسية فى بيئاتها المختلفة

---

(١) المصدر نفسه ٧ : ٢٣٨-٢٣٩

(٢) « ابو عثمان المازنى : سمعت أبا عبيدة يقول : ميمية بشار هذه أحب الى من ميميتى جرير والفرزدق » الأغانى ٣ : ١٥٨

(٣) أنظرهما فى نقائض جرير والفرزدق ٢ : ٥٠ ، ١٠١ ، ط الصاوى

تجاه الدولة الجديدة ، بما لانستطيع أن نبرىء أبا عبيده من التأثر به فى حكمه عليها.

ومهما يكن من أمر ، فاننا نرى ـ ولاريب ـ فى مثل هذه الأحكام الأدبية ، وفى هذه النزعة المحافظة فى النقد ، أن أبا عبيدة كان شديد الوفاء لثقافته العربية البدوية الجاهلية ، شديد الانطباع بها . ولاريب أيضا أن كل حكم من هذه الأحكام التى أثرت عنه يمكن أن ينظر فيه على حدة ، وأن يتبين الباحث فيه أسبابا وعوامل مختلفة ، على النحو الذى عرضنا لشىء منه . ولكنا نحسب أن إكبار القديم كان أول هذه العوامل سلطانا على عقل أبى عبيدة ، وأقواها توجيها لأحكامه الادبية ، الى جانب مارأينا من ضعف ملكته فى تذوق الشعر ونقده .

وهناك ناحية أخرى فى النقد نستطيع أن نرى فيها أبا عبيدة العالم الذى يعتمد فى نقده على العلم والرواية ، وهى نقد الشعر من حيث تمييز الموضوع منه والأصيل والزائف والصحيح ، فان فتنة الناس برواية الشعر كما رأينا فى أول هذا الفصل ، جعل منها صناعة يتنافس مصطنعوها فى التماس وسائلها ، والافتنان فى توسيع دائرتها ، وكفاية الحاجات المختلفة فى هذه « السوق الجديدة » ، وإذ ذاك لم يعد تلقى الشعر وحده كافيا فى إرضاء هذه السوق المنهومة الرغيبة التى لاتشبع ولاتقنع ، ثم فى إرضاء روح المنافسة بين الرواة . ومن هنا نشأت بين هؤلاء الرواة صناعة وضع الشعر ، فكان الواحد منهم ، من أصحاب الموهبة الفنية والقدرة على قول الشعر ، يعتمد على موهبته هذه ويستغلها فى صناعة الأشعار على غرار الشعر القديم ، وإزجاء مايصنع من ذلك الشعر الزائف فى معرض الشعر الأصيل ، على نحو قريب مما نعرف فى أيامنا هذه عند تجار التحف الأثرية . وقد عرف بهذا من أهل البصرة خلف الأحمر ، كما عرف به حماد الراوية من أهل الكوفة . بل يظهر أن هذا الفن الجديد كانت له فتنته التى تجاوزت منطقة الملابسات التى أشرنا اليها ، فنرى أن بعض من عرفوا بالتورع والتأثم والدقة لم يستطيعوا فى بعض الأحيان أن يتحصنوا من هذه الفتنة ، ومن ذلك ـ فيما نحسب ـ ماروى من هذا القبيل عن أبى عمرو بن العلاء .

وبذلك انفتح لأصحاب الشعر هذا الباب من النقد ، ينفذون منه الى دفع هذا النوع من الفساد ، ثم كان لهم بعد ذلك سبيلان متميزتان : سبيل الشعراء أو أصحاب الذوق الشعرى ، وسبيل العلماء أصحاب الرواية والمقاييس العلمية

فاما المنهج الأول فلعلنا نستطيع أن نتمثله فى هذه القصة التى يرويها أبو عبيده عن صاحبه بشار أنه سمعه « يقول ـ وقد أنشد فى شعر الأعشى هذا البيت :

وأنكرتنى ، وما كان الذى نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا ـ:

هذا بيت مصنوع مايشبه كلام الأعشى » . قال ابو عبيدة : « فلما كان بعد هذا بعشر سنين ، كنت جالسا عند يونس ، فقال : حدثنى أبو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيت ، وأدخله فى شعر الأعشى . فجعلت حينئذ ازداد عجبا من فطنة بشار ، وصحة قريحته ، وجودة نقده للشعر » (١)

فهنا نرى أن الذوق الفنى هو الذى استشعر الفرق بين هذا البيت المنحول للأعشى وبين ماعرف من شعره ، فحكم بأنه مصنوع . ولكن بشارا لم يكن شاعرا فحسب ، ولكنه كان قبل ذلك عالما بالشعر دارساً له ، وقد مكنته شاعريته من إدراك الطعوم المختلفة والظلال المتفاوتة التى يتميز بها كل شاعر عن الآخر ، وبذلك صح حدسه وأصاب نقده . وشأن بشار فى هذا هو شأن بعض الرواة الذين كانت لهم هذه الشاعرية أو ذلك الذوق الفنى ، كخلف الاحمر . ويحكى ابن سلام أن قائلا قال له : « اذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالى ماقلت فيه أنت وأصحابك » ، فقال له خلف : « إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته ، فقال لك الصراف إنه ردىء ، هل ينفعك استحسانك له ؟ » (٢)

وأما المنهج الثانى فيمكن أن نتمثله فى هذه القطعة التى أوردها صاحب المزهر عن كتاب الأيام لأبى عبيدة ، قال : « وأنشد ابو عبيدة فى كتاب أيام العرب ، لهند ابنة النعمان :

(١) الاغانى ٣ : ١٤٣

(٢) طبقات الشعراء ص ٤ ط ليدن .

ألا من مبلغ هنـدا رسولا فقد جـد النفير بعنقفير
فليت الجيش كلهم فداكم ونفسى والسرير وذو السرير
فإن تك نعمة وظهور قومى فيـا نعم البشارة للبشير

ثم قال أبو عبيدة: وهى مصنوعة لم يعرفها أبو بردة، ولا أبو الزعراء، ولا أبو فراس، ولا أبو سريرة، ولا الأغطش. وسألتهم عنها قبل مخرج ابراهيم بن عبد الله بسنتين، فلم يعرفوا منها شيئا، وهى مع نقيضة لها أخذت عن حماد الراوية»(١)

فذلك أسلوب آخر فى هذا الفن من النقد لا يعتمد على الفطنة والقريحة أو «الذوق الفنى» كما رأينا فى الأسلوب الأول، وإنما يعتمد على المعرفة والرواية والتتبع والتحرى، كما نرى فيما يحكيه أبو عبيدة عن نفسه فى هذه القطعة

ولكن الأمر هنا كالأمر هناك. فكما رأينا فى المنهج الفنى أن العلم بالشعر وروايته ودراسته مما لابد منه، ولا غناء عنه، فى ذلك اللون من الوان النقد، فكذلك الأمر هنا فى هذا المنهج القائم أول شىء على العلم والدرس والرواية. فإنه مهما يكن الدارس للشعر، ومهما يكن أثر الاستغراق فى هذه الرواية على الاتجاه الفنى، فإنها تاركة عنده ـ ولابد ـ نوعا من التذوق، لعله لايكون صادرا عن موهبة فنية، ولكنه يستطيع أن يتبين به على وجـه ما شيئا من الفرق بين شعر وشعر. وإن يكن الشأن الأول فى هذا المنهج إنما هو للعلم والمعرفة والرواية والمدارسة، ثم يجىء هذا النوع من التذوق رافدا له

وكذلك كان أبو عبيدة فيما نرى. وإذا كان يبدو لنا فى القطعة المأخوذة من كتاب الأيام أنه يجعل معتمده فى تعرف صحيح الشعر من مصنوعه على قول الرواة وشهادة أهل البادية، فليس فى ذلك ماينفى إحساسه بأن فى ذلك الشعر شيئا يريبه، مما يحمله على سؤال هذا أو ذاك فى أمره، والتماس الأخذ بالثقة فى الحكم عليه، كما نستطيع أن نرى ذلك فى هذا الخبر الذى يرويه ابن سلام عنه، قال:

---

(١) المزهر للسيوطى ١ : ١٥٩، ط محمد على صبيح، مصر

« اخبرنى أبو عبيدة : أن ابن دؤاد بن متمم بن نويرة قدم البصرة فى بعض مايقدم له البدوى ، فى الجلب والميرة ، فنزل النحيت. فأتيته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته ، وكفيناه ضيعته ، فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويصنعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها والوقائع التى شهدها . فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله »[1]

وهكذا نرى فى هذا الفن من النقد أبا عبيدة العالم الراوية قبل كل شىء كما رأيناه فى ذلك الفن الآخر

* * *

وهناك ناحية أخرى تتصل بالنقد اتصالا قريبا ، ومانحب أن نفرغ من هذا الفصل قبل أن نعرض لها ، ونشير إلى أثر أبى عبيدة فيها ، وهى ناحية تصنيف الآثار الأدبية ، إذ كان ذلك التصنيف يعتمد فى حقيقة أمره على النظر العام الشامل ، وعلى نوع من التجريد فى اعتبار هذه الآثار وتفهمها وملاحظة مابينها من روابط وفروق ، تجمع متشابهها وتميز متباينها ، على حسب وجهة النظر اليها ، فهناك ، مثلا ، نوع من التصنيف يتجه إلى مواطن الآثار الأدبية ، وهناك نوع آخر يتجه إلى فنونه

أما مواطن الأدب بالنسبة لذلك العصر فاكثر ماكان يمكن ان تعنيه هى القبائل التى ينتسب الشعراء اليها . وقد كتب أبو عبيدة عن هذه القبائل طائفة من الكتب لم يصل إلينا منها إلا أشتات قليلة موزعة فى كتب الادب المختلفة وقد عرض - فيما يبدو - فيها لشعر هذه القبائل على نحو ما . والكلام عن مكانات القبائل فى الشعر ، والموازنة بينهم فيه قديم ، منذ كان الشعراء ألسنة قبائلهم المدافعين عنهم والمذيعين لمآثرهم ، فلا جرم أن كانت الموازنة بينهم مرتبطة بالمفاخرة بين القبائل التى يمثلونها . وأكبر الظن ان علم أبى عبيده فى هذا كان علم رواية ، على ماهو الغالب عليه

---

(١) طبقات الشعراء ص ١٤ ط ليدن :

فتصنيف الشعر باعتبار القبائل سبيل قائمة ، سار أبو عبيدة فيها كما سار غيره من الرواة ، ولكن الشيء الذى يلفت النظر فى تصنيف الشعر باعتبار موطنه هو تصنيفه إلى شعر بدوى صدر عن البادية ، وشعر حضرى صدر عن المدن أو القرى ، ولعل هذا هو أصل مانجده عند ابن سلام فيما بعد ، فى الجزء الأول من كتابه الذى جعله للشعراء الجاهليين ، فذكر طبقاتهم طبقة طبقة ، ثم أفرد بعد ذلك شعراء القرى العربية بطبقة على حدة . وها هو ذا نص أبى عبيدة ، كما أورده البيهقى ابراهيم بن محسن . قال :

« الشعراء فى الجاهلية من أهل البادية أهل نجد ، منهم امرؤ القيس والنابغة وزهير ودريد بن الصمة ، ومنهم كثير فى الاسلام ، فهؤلاء الشعراء الفحول الذين مدحوا وفخـــروا وذموا ووصفوا الخيل والمطر والديار وأهلها . وأشعر أهل المدن أهل يثرب وأهل الطائف وعبد القيس ، وليس فى بنى حنيفة شاعر »[1] . وقد روى عنه فى مواضع أخر أن أشعر أهل المدن أهل يثرب وأن أشعر أهل يثرب حسان بن ثابت . أما أهل الطائف وعبد قيس وهم أهل البحرين فتختلف الروايات عنه فى المفاضلة بينهما ، على أن أشعر أهل الطائف عنده هو أميه بن ابى الصلت

والذى يعنينا من هـذا هو تاريخ الاتجـاه الى تصنيف الشعر العربى تبعاً للبلدان التى ينتسب الشعراء اليها ، وهو التصنيف الذى استفاض فيما بعد ، وإن كانت استفاضته ترجع الى عوامل أخرى ليس هذا موضع الـكلام عنها .

فأما تصنيف الشعر حسب فنونه . وهى تلك الأبواب العامة التى قيل إن الشعر العربى موزع بينها كالمدح والرثاء ، والغزل والهجاء ، والزهد والوصف فيبدو أن ذلك أمر لم يكن قد آن بعد أوانه ، فى تلك الفترة من الزمن ، إذ كانت أسبابه لم تـكن قد تهيأت له . وها هى ذى المجموعات الشعرية التى

(١) المحاسن والمساوىء ٢ : ٩٦ ط السعادة ، القاهرة ، ١٩٠٦ م

وضعت إذ ذاك كالمفضليات والاصمعيات ونوادر أبى زيد الانصارى وجمهرة أبى زيد القرشى (على شىء من الريبة يداخل هـذه الأخيرة) ، ليست إلا نوعا من التسجيل لروايات أصحابها ، بعد شىء من الاختيار القائم على الاعتبار الفنى أو الاعتبار اللغوى . وقد نرى فى الجمهرة نوعا من التصنيف ولـكن الجمهرة - كما قلنا - مريبة ، من ناحية ، وهـذا التصنيف ليس هو الذى نعنيه من ناحية أخرى ، إلا ما نرى من إفراد المراثى بباب على حدة . على النحو الذى نراه عند ابن سلام .

وأمر المراثى خليق بالنظر والتأمل ، إذ يبدو أنهـا كانت أسبق فنون الشعر إلى الانفراد بمكان خاص بها فى كتب الشعر كما رأينا ، وأكبر الظن أن أبا عبيدة نفسه عنى بها عناية خاصة ، وقد حكى البيهقى عنه أنه قال : « أحسن مناطق الشعر المراثى والبكاء على الشيب . وكان بنو مروان لا يقبلون الشاعر إلا أن يكون راوية للمراثى ، ويقولون إن فيها ذكر معالى الأمور » ، ثم قال البيهقى : « وقيل لأبى عبيدة : ما أجود الشعر؟ قال النمط الأوسط ، يعنى المراثى. قال : وسألت أعرابيا : ما أجود الشعر عندكم ؟ قال : ما رثينا به آباءنا وأولادنا. وذلك أنا نقولها وأكبادنا تحترق »[1] . وبين كتبه التى اندثرت واحتفظ ابن النديم باسمائها كتاب اسمه « كتاب النوائح » يغلب على الظن أنه كسره أو جزءا كبيرا منه على قصائد الرثاء ومقطوعاته

ولـكن أبا عبيدة إذا كان لم يتجه - كما رأينا - إلى تصنيف الشعر بحسب فنونه ، على النحو الذى عرف فيما بعد ، فانه ليبدو لنا أنه لم يقف عند الرواية والجمع والاختيار ، وإنما تجاوز ذلك وسلك إلى التصنيف سبيلا أخرى ، هى تصنيفه بحسب موضوعاته الجزئية التى يمكن أن تندرج تحت تلك الفنون العامة التى لم يكن عرف التصنيف اليها بعد . ذلك أن اتجاهه إلى تصوير الحياة العربية ،

(١) المحاسن والمساوى ٢ : ٩٦ ، ط السعادة ، القاهره ، ١٩٠٦ م

والتعريف بنواحيها المختلفة ، كما رأينا من قبل ، قد أخذه بتصنيف الكتب لتحقيق ذلك الاتجاه ، يتناول فيها موضوعات هذه الحياة ، كل موضوع فى كتاب خاص به على النحو الذى نستطيع أن نتمثل صورة منه فى فهرست كتبه التى أوردها ابن النديم، وإذ كان الشعر من أصل العناصر فى نواحى الحياة العربية وفى تصويرها ، فان ذلك الاتجاه قد استتبع بطبيعته أن تتضمن هــذه الكتب النصوص الشعرية التى تتصل بموضوعاتها

ونحن حين نقرر هذا لانبنى ذلك الافتراض على أصالة العنصر الشعرى فحسب ، ولكن الأمر بحيث نكاد نضع أيدينا عليه ، فمن هذه الكتب ما كان الشعر هو الأصل فيه ، والعنصر الأول فى تأليفه ، ثم تجىء الأخبار من بعد لتفسير ذلك الشعر وبيان إشاراته ، ككتاب النقائض بين جرير والفرزدق ، ومثل هذا لا مراء فى مكان الشعر منه ، فأما ماعدا مثل هذا الكتاب ، فانما نقيس منها ماغاب عنا على مابقى لدينا ، فها هو ذا كتاب ككتاب الخيل - وقد أبقت عليه يد الحدثان - نستطيع أن نتعرف منه أسلوب أبى عبيدة فى أمثاله من الكتب التى وضعها للتعريف بألوان الحياة العربية ككتبه التى وضعها عن بعض أصناف الحيوان ، كالبازى والحمام والحيات ، أو تلك الطائفة من كتبه التى بناها على بيان المآثر والمناقب والمثالب . فكتاب الخيل هذا لم يخل موضع من مواضعه من شعر يسوقه ليكون شاهدا له . فى سياق كلامه عن الصفات المختلفة للخيل ، ولكنه فضلا عن ذلك يعقد فى آخره فصلا طويلا يضمنه كثيرا مما قالته العرب فى أشعارها من صفة الخيل . فللشعر إذن مكانه الواضح الجلى فيه ، وكذلك الأمر - فيما نحسب - فى أمثاله ونظائره ، وبعضها أمس منه بالشعر وأكثر استدعاء له ، واقتضاء لايراده . على انه قد بقى لدينا من بعض هذه الكتب بقايا تدل هذه الدلالة ، وتشهد مثل هذه الشهادة ، مما لايكاد يدع لدينا شكا فى الجانب الشعرى لهذه الطائفة من الكتب ، وأن أبا عبيدة استطاع بها ان يصنف الشعر على هــذا الوجــه ، وإن كان لم يقصد فيها أو فى اكثرها الى الشعر فى نفسه ، ولكن هذا النوع من التصنيف كان على كل حال الخطوة

---

(٢) المحاسن والمساوى ٢ : ٣٤ ، ط السعادة ، القاهرة ، ١٩٠٦ م

الطبيعية التى سبقت التصنيف بحسب الفنون

وبعد فهذا هو أبو عبيدة الراوية الناقد ، وهـذا هو مذهبه فى الرواية وأسلوبه فى النقد . ولعلنا نكون قـــد استطعنا فيما قدمنا أن نبرز الخطوط الرئيسية لهاتين الناحيتين الوثيقتى الصلة فى تاريخ كل أدب ، وأن نحرر القول فيها ونزيل الابهام الذى كان مطبقا عليهما ، قدر ماأتيح لنا أن تبينه من خلال تلك البقـــايا القليلة والآثارات الضئيلة المتناثرة هنـــا وهنا ، مما يتصل بهذه الموضوع ، بعد أن عبثت بكتبه أعاصير الزمن .

ولقـــد كان فيما خلفـــه أبو عبيـــدة من الكتب كتاب يذكره ابن النديم باسم « كتاب الشعر والشعراء » ، أكبر الظن انه لو وصل الينا لاستطاع أن يقيمنا على الجادة ، ويسددنا فى سواء السبيل

ولكن مهما يكن من أمر فإن مما يبعث فى قلوبنا بالطمأنينة العلمية لهذه الصورة التى أتيحت لنا عن أبى عبيدة الراوية الناقد هو أنها صورة متسقة الأجزاء ، منسجمة مع ما أتيح لنا أن نعرفه من صور حياته الأخرى ، وأننا لم نأل جهداً فى اصطناع الأسلوب العلمى الذى يضعه فى مكانه الطبيعى . من غير تحامل أو محاباة .

طه الحاجرى

المكانة الادبية

لمدينة الاسكندرية فى عهد البطالمة

فى شهر ديسمبر من عام ٣٣٢ ق. م دخل مصر الاسكندر الأكبر ليطرد الفرس ويضم إلى ملكه أغنى وأخصب قطر فى العالم القديم ...

وبعد أن تم له النصر السريع على الفرس توجه إلى الصحراء الغربية لبزور الإله (آمون) - وكان يمثل أكبر إله عند اليونان - وذلك هو ما كان مشهوراً عندهم باسم « زوس Zeus كما كان يعرف عند الرومان باسم « جوبيتير Jupiter » .

ولعل الاسكندر الأكبر كان يرمى من وراء ذلك إلى غرض سياسى بعيد إذ أنه قبل تلك الزيارة قدم إلى آلهة المصريين الضحايا ، وأظهر لقسسهم إجلالا واحتراماً كبيرين ، وكان ذلك على العكس مما عرف عن الفرس من تخريبهم للمعابد المصرية واستهانتهم بديانة المصريين وآلهتهم ...

يروى لنا أحد مؤرخى الرومان ، وهو المسمى (Quintus Curtius) ، أن الاسكندر أثناء عودته من معبد الإله (آمون) عرج على مكان مدينة الاسكندرية وأعجب بجمال الموقع إعجاباً شديداً ، ومنذ ذلك الحين ساورته الرغبة فى بناء مدينة تحمل اسمه فى هذا المكان . ولم يكن هناك فى تلك المساحة من الأرض إلا قرية ساحلية صغيرة ، يسميها الفراعنة (راكونداه) ويسميها اليونان (راكوتيس Rhacotis) ، وكان يسكن هذه القرية بعض الرعاة وصائدى الأسماك ، ويذكر لنا هذا المؤرخ نفسه أن الاسكندر وجه نظره أولا إلى بناء تلك المدينة التى كان يحلم بها فى الجزيرة الصغيرة المواجهة لذلك المكان والتى كانت تعرف باسم (فاروس Pharos) ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك الرأى ، إذ وجد أن بناء مدينة فى هذه الجزيرة الصغيرة

لا يمكن أن يحقق اغراضه التى يهدف إليها من عظمة ومجد مرجوين لتلك المدينة المنتظرة ، وعلى هذا فقد وجه عنايته إلى الجزء من الأرض المحصور بين البحر وبين بحيرة مريوط . ثم انه فى عهد البطالمة وصلت جزيرة (فاروس) بالشاطىء ، وذلك بواسطة اللسان من الأرض الذى يفصل الآن الميناء الغربى من الميناء الشرقى ...

فى عام ٣٣١ ق. م. عهدالاسكندرإلى أكبر مهندسيه (دينوقراطيس Dinocrates) مهمة تنفيذ مشروع بناء المدينة ، ولقد كان لطبيعة المكان من الناحية الجغرافية أثر فى تخطيطها فجاءت فى أغلب مؤسساتها وفى تقسيمها على شكل مثلثات ، وهانحن حتى اليوم لانزال نرى أثر ذلك فى كثير من شوارعها وبيوتها ، وهناك أسطورة يتناقلها مؤرخوا الرومان قد صاحبت تنفيذ مشروع بناء المدينه ، فهم يروون أن (دينوقراطيس) خطط المدينة أولا بواسطة دقيق الشعير ، إما لأن ذلك من عادة اليونان فى تخطيط مدنهم وإما لأن الجير أعوز المهندس إذ ذاك ، فجاءت جماعات الطير وأكلت هذا الدقيق ، وقد اختلف الناس حينئذ فى تفسير هذه الظاهرة وتباينت فيها آراء المنجمين ففسرها بعضهم تفسيراً يدعو إلى التشاؤم وكاد العمل يقف لولا أن جاء أحد القساوسة المصريين ورأى فى تلك الظاهرة فألا حسناً إذ قال أن هذه المدينة سيتم بناؤها ، وسيرتفع شأنها ، وستكون مصدر خير ونعمة لكثير من الناس . ونحن لاتعنينا هذه الأسطورة ولا قيمتها التاريخية بقدر ما يعنينا درس عقلية القدماء وطريقتهم فى فهم بعض الظواهر الطبيعية ...

لقد تم بناء الاسكندرية وتركزت فيها بسرعة حركة ثقافية من علم وأدب وفن ، ثم أنها قد بلغت أوج عظمتها فى فترة يسيره من الزمن ، ولو كان صاحب المشروع حياً إذ ذاك لوجد أن هذه المدينة قد تجاوزت بكثير ماكان يساوره بالنسبة لها من أحلام . ولقد اتجهت عناية القائمين بالأمر أولا إلى الناحية الثقافية ، ففى نفس الوقت الذى تأسست فيه مدينة الاسكندرية تأسس فيها معهد للعلم فلنترجمه بمدرسة الاسكندرية إن أحببنا

أو بجامعة الاسكندرية إن أردنا ، وبجانب هذه الجامعة أنشئت دار للكتب ومساكن للطلبة والأساتذة ، ومراصد لملاحظة النجوم والكواكب السماوية ، ومعامل للعلوم التجريبية .

ولم يجد ملوك البطالمة الأوائل صعوبة فى استدعاء العلماء من مختلف البلاد وفى مختلف الفنون كى يعمروا جامعة الاسكندرية وينشروا لواء معارفهم على مدن العالم المتحضر إذ ذاك . وتلك ظاهرة امتاز بها الفاتحون من اليونان على الرومانيين الفاتحين فيما بعد ، فبينما نجد هؤلاء يحاولون جهدهم تركيز سلطانهم السياسى والأدبى فى روما وحدها فيجلبون إليها العلماء من سائر الأقطار ، والآثار من سائر الفنون . إذ نرى أولئك يهتمون بإنشاء المدن والمؤسسات العلمية والفنية فى سائر البلاد التى يفتحونها ومن هنا تتحقق العبارة المشهورة التى قالها أحد النقاد الفرنسيين (لقد غزا اليونان الدنيا وأعينهم فى السماء ، أما الرومان فقد غزوا الدنيا وأعينهم فى الأرض) .

وهناك عوامل عدة قد ساعدت جامعة الاسكندرية على تحقيق أغراضها فى ظرف وجيز من الزمن .

فمن هذه العوامل صلاحية البيئة من الناحية العلمية ومما كانت تمتاز به من حرية واستقلال واستقرار وهنا لانجد بدأ من الإشارة إلى الأثر العميق الذى تأثرت به جامعة الاسكندرية من جامعات مصر الفرعونية ، وخصوصاً جامعة هيليوبوليس وجامعة ممفيس : الأولى بعلومها التجريبية كالحساب والهندسة والطب والفلك ، والثانية بعلومها النظرية كالفلسفة والدين . وقد انتقل هذا الاثر إلى جامعة الاسكندرية إما عن طريق علماء اليونان أنفسهم الذين جاءوا من قبل يدرسون العلم فى هاتين الجامعتين ، واما عن طريق قساوسة الفراعنة الذين كانوا على اتصال مباشر أو غير مباشر بأساتذة العلم فى جامعة الاسكندرية أيام عهدها الأول .

ومن هذه العوامل أيضاً ماعرف عن ملوك البطالمة من كرم وسخاء وخصوصاً بطليموس الاول والثانى والثالث اذ كانت الارزاق تجرى عن سعة

على الطلاب والأساتذة ، وكانت الآلاف المؤلفة تنفق على شراء الكتب وآلات الرصد وعمل التجارب . وان من يدرس بدقة تاريخ هذه الملوك ويدرك مبلغ ما كانوا ينفقونه من مال على الجامعة ولوازمها ومبلغ ما كانوا يقومون به من تشجيع أدبي ، ليفهم فى غير عناء إلى أى حد كان هؤلاء الملوك يهدفون إلى أن تسود مدينة الاسكندرية جميع مدن العالم المتحضر إذ ذاك . ولقد وجدت بينهم وبين غيرهم من الملوك المعاصرين شبه منافسة على تلك السيادة الأدبية . وقد أعانهم على ذلك بلا شك ماوجدوه فى مصر من كنوز علمية نفيسة وكنوز مالية خصبة .

وهناك عامل آخر خارجي ولكنه لايقل أهمية عن العاملين الأولين ، ذلك هو الضعف المسيطر على مدن اليونان الجامعية فى ذلك الوقت سواء أكان ذلك فى بلاد اليونان أنفسهم مثل مدينة أثينا أم فى مستعمراتهم المنتشرة فى حوض البحر الأبيض المتوسط مثل مدينة (سيرا كوزا Syracusae) فى جزيرة صقلية ومدينة « قورين Cyrene» فى شمال أفريقيا، اذ كانت هذه المدن فى شبه انحلال سياسى وليس من شك فى أن الضعف السياسى يصحبه غالباً ضعف أدبي .

كان الانحلال السياسى اذن فى بلاد اليونان وفى مستعمراتهم عاملا قوياً من عوامل الرقى الأدبي لمدينة الاسكندرية . وها هى بعض الأمثلة لتتبين إلى أى حد قد استفادت مدينة الأسكندرية من هذا الانحلال الخارجي : المثال الأول « ديمتريوس الفاليرى Demetrius Phaleri » وهو من رجال السياسة والأدب فى أثينا ، كان هذا السياسى خطيباً من أقدر الخطباء ومؤرخاً من أكبر المؤرخين ، ولكن جرائم السياسة قد لحقته فثار ضده الأثينيون ، واضطهدوه فلم يجد بداً من الفرار ففتحت له مدينة الاسكندرية أبوابها ، وقدم اليه بطليموس الأول معونته الأدبية والمادية فأقام فى كنفه حتى مات فى عام ٢٨٣ ق . م أى قبل موت الملك بعام واحد .

ومن هذه الأمثلة أيضاً « كليومين الثالث Cleomenes III » وكان ملكا لأسبارطه. ولم تكن شهرته فى الأدب أقل من شهرته فى السياسة ولكنه دفع بدوره أيضاً ضحية من ضحايا السياسة وعدم استقرارها فى أسبارطه إذ أنه حين لم يتمكن

من مقاومة الثائرين عليه ، فر بدوره إلى الأسكندرية ومكث بها حتى نهايته المؤلمة فى عام ٢٢٢ ق . م .

وكذلك نجد « ثيوكريتس Theocritus » ، وهو من أكبر شعراء اليونان فى العالم القديم ، نشأ فى مدينة (سيراكوز) فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد وكانت هذه المدينة مستعمرة يونانية مزدهرة فى جزيرة صقلية . ويعتبر هذا الشاعر بحق المبتكر الأول لنوع جديد من الشعر عرف بشعر الرعاة . وكان تأثير هذا النوع من الشعر بعيد المدى عند شعراء الرومان وخصوصاً [فيرجيل Virgilius] أكبر شاعر فى روما . انتقل « تيوكريت » إلى جزيرة [كوس Kos] وهى من جزر بحر إيجه ؛ ثم منها إلى جزيرة سيسيل يطلب معونة الملك (هييرون Hiéron) ملك سيراكوز Syracusae ، ولكن مدينة الاسكندرية كانت أوسع من غيرها رحاباً لهؤلاء الأئمة المضطهدين ، وملوكها أكثر عوناً ومدداً من غيرهم من الملوك ، فجاء « تيوكريتس » إلى الاسكندرية واستقر بها بعد أن حبب له فيها المقام .

ومن هذه الأمثلة أيضاً (كاليماخوس Callimachos) وهو من الأدباء البارزين والمبتكرين فى العالم القديم ، نشأ فى (قورين) وكانت مستعمرة يونانية شمال أفريقيا فى غرب مصر ، ثم انتقل إلى أثينا وأقام فيها طويلا ، وقد مرت عليه أعوام من الضنك والبؤس لم تنته إلا بإيواء ملك الاسكندرية إياه ، فأدخله مكتبة الجامعة كمشرف على جزء كبير منها ، وربما كان مديراً عاما للمكتبة بأكملها .

ولم تقف همة ملوك الاسكندرية وعنايتهم عند حد إيواء الفارين من البؤس والمضطهدين من السياسة ولكنهم كانوا يبعثون برسلهم لاستدعاء أئمة العلم وسادة الأدب من مختلف البلاد ؛ باذلين فى سبيل ذلك كثيراً من وسائل الاغراء .

ولعل أوضح مثال لذلك هو (فيليمون Philemon) ، وكان شاعراً مسرحياً من أكبر شعراء الكوميدى ، نشأ فى (كيليكيا) وكانت مستعمرة

يونانية أيضاً فى آسيا الصغرى ، دعاه بطليموس إلى الحضور الى الاسكندرية فلبى الدعوة وجاء ينشر معارفه بين الاساتذة والطلاب، ويعدُّ هؤلاء وأولئك الى التوسع فى ميدان الأدب من ناحية النقد والانتاج .

هؤلاء العلماء وكثير غيرهم يضيق هذا المقال عن التعريف بهم قد وجدوا فى الاسكندرية مكاناً خصيباً فألقوا فيه بذور معارفهم ، فنبتت ، وسرعان ما أينعت وأثمرت .

بهذه العوامل مجتمعة قد تركزت فى مدينة الاسكندرية حركة أدبية علمية واسعة النطاق ، وبدل أن كانت تتلق معارف اليونان وتحذو فى الدرس حذوهم ، بدأت تنقد هذه المعارف ، ثم تؤلف وتبتكر فأصبح لها فى الطب وفى الادب وفى الفلسفة وفى الرياضة وفى الجغرافيا آراؤها الخاصة ومذاهبها الجديدة . ولهذا فقد سادت مدينـــة الاسكندرية غيرها من المدن الجامعية المعاصرة ، وأصبح يطلق عليها بحق (الوارثة لمدينة أثينا) كما يسميها بعض العلماء الأوربيين ، أو (أثينا الشرق) كما يسميها البعض الآخر .

منذ ثلاثة أعوام ألقى أحد الأساتذة فى جامعة السوربون . وهو اختصاصى فى الآداب القديمة . محاضرة عن الثقافات فى العالم القديم . وعن مراكزها الرئيسية المختلفة : تتلخص هذه المحـــاضرة فى أن البحر الأبيض المتوسط كان المحور الأساسى لتلك الثقافات وأن مراكزها تدور حوله من وقت الى آخر فأول مركز ثقافى هو مصر الفـــرعونية وكانت مظاهر تلك الثقافات ممثلة فى جامعاتها :هيليوبوليس — ممفيس ـ طيبة . ثم اتجه ذلك التيار الثقافى بعد ذلك إلى الغرب فاحتضنته اليونان وتركز أولا فى مدينة أثينا ثم انتشر بعد ذلك فى المستعمرات اليونانية العديدة .

ومنذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد عاد ذلك التيار مرة أخرى الى مهده الاول ولكنه تركز هذه المرة فى مدينـــة الاسكندرية ، واستقر بها حتى أوائل القرن الاول من ميلاد المسيح . وأخيراً اتجه مرة ثانيـة إلى الغرب ولكنه استقر فى مدينة روما . ودام بها حتى أواخر القرن الرابع بعد الميلاد .

ومن ذلك نرى أن مدينة الاسكندرية قد لعبت فى نشر الثقافة القديمة دوراً له خطره ، وإن من يدرس تاريخ روما وتاريخ الأدب اللاتينى ليدرك إلى أى حد كان كتاب الرومان وأدباؤهم متأثرين بثقافة الاسكندرية فى درسهم وفى إنتاجهم .

لم تكن الدراسة فى جامعة الاسكندرية مثل مانعهده الآن من الدراسة فى الجامعات الحديثة . وها هى صورة من نظـــام الدراسة فى تلك الجامعة ننقلها عن أحد المؤلفين الفرنسيين المعروف باسم (كوات Couat) من كتابه (La poésie alexandrine sous les trois primiers Ptolémées) . يقول هذا الكاتب بعد أن تكلم طويلا عن جامعة الاسكندرية .

« ولقد كان أئمة الجامعة أساتذة ومؤلفين فى نفس الوقت . وكان لاشهر العلماء فيها طلاب يفدون ليتلقوا عنهم القواعد العلمية ، وأشهر علماء النحو فى ذلك العصر كانوا طلاباً طوراً وأساتذة طوراً آخر . وبعضهم قضى كل حياته بين جدران الجامعة ولم تعهد مدرسة أخرى أكثر حرية فى دراساتها من الدراسة فى تلك الجامعة ، فلم يكن هناك مانعهده الآن فى مدارسنا الحديثة من الاضطرار فى الحضور ومن المواظبة المنظمة بل كانت هناك أحاديث ذات صبغة جدية ، وأبحاث يشترك فيها الجميع ، واحترام طبعى من الصغار إلى الكبار وتمسك وثيق بتقاليد أدبية وعلمية ، تلك هى طريقة الدراسة فى الجامعة كما أتصورها ، ومع ذلك فقد كانت هناك دروس متوالية لعدد من الشبان ، بل ولعدد من الاطفال ، وأكثر العلماء شهرة لم يكن يترفع عن اعطاء مثل هذه الدروس ولا عن مخالطة هؤلاء الصغار وتعليمهم بطريقة مباشرة » .

هذا هو نظام الدراسة فى جامعة الاسكندرية القديمة كما يصوره لنا هذا الكاتب الفرنسى ، ولو أضيف الى ذلك ماعرف من نظام الحياة فيها وما كان هناك من انقطاع تام للدرس والتحصيـــل حيث يقطن الاساتذة والطلاب فى مساكن خاصة وتجرى عليهم الارزاق عن ســـعة من خزانة

الدولة ، وهم بمعزل تام عن مشاغل الحياة ومشاكلها الخارجية . لو أضيف ذلك الى وصف الكاتب الفرنسى لاستطعنا أن نجد — فى يسر — صورة مشابهة تماما لجامعة الاسكندرية القديمة فى الجامعة الازهرية قبل أن ينالهـا هذا النظام الحديث ، أى قبل ربع قرن تقريبا ...

وليس من شك فى أن أهم مؤسسة ألحقت بالجامعة ، وكان لها أبعد الاثر فى رفع شأنها ونشر لواء المعارف ، هى المكتبة ، وكان الغرض من إنشائها هو أن تفى بحاجة الاساتذة وتعين الطلاب والباحثين على الدرس والتحصيل . ونحن لانستطيع أن نمضى فى هذا البحث دون أن نقف وقفة قصيرة عند هذه المكتبة لنتبين قيمة الثروة الادبية والعلمية التى كانت تحتويها هـذه المؤسسة بين جدرانها : كانت مكتبة الاسكندرية القديمة تعتبر أغنى مكتبة فى الدنيا حينذاك . اذ لم يتيسر لأى مكتبة أخرى فى أى بلد آخر أن تجمع من المجلدات العلمية والآثار الفنية بقدر ماجمعت مكتبة الاسكندرية وفى هذه المكتبة كان يجتمع الادباء والعلمـاء لتنظيم الكتب ثم لشرحها والتعليق عليها . وقد بلغ عدد المجلدات التى كانت تحتوى عليها ٧٠٠ر٠٠٠ مجلد . وهذا عدد عظيم جداً إذا قيس بغيره مما كانت تحتوى عليه المكتبات فى ذلك الزمن .

ولكى ندرك قيمة هذه الثروة الفنية ، ومبلغ هذا العدد الضخم من المجلدات ، نحب أن نقف لحظة نتحدث فيها بلغة الارقام ، ولكن قبل أن نذكر هذا الاحصاء عما هو موجود الآن من مجلدات فى مكتبات الاسكندرية وفى مكتبات القاهرة ، نود أن يعرف القارىء أن مصدرنا فى ذلك هـو مايوجد من احصاء فى المكتبة العامة لجامعة فاروق .

والفضل فى هذا يرجع أولا الى مدير هذه المكتبة ، إذ قد أضاف على الاحصاءات الرسمية ماورد على المكتبات من مجلدات أخرى ، وأظهر من العناية وحسن الاستعداد مايجعلنا نرجو أن تكون هذه الروح ، وذلك الاستعداد متوفرين عند كل المشرفين على دور المكتبات العامة .

يوجد فى الاسكندرية الآن المكتبة العامة ومكتبات كليات جامعة فاروق الاول .

ثم مكتبة المتحف اليونانى الرومانى وأخيرا مكتبة البلدية .

أما المكتبة العامة ومكتبات كليات الجامعة فهى تضم ١٠٠٫٠٠٠ مجلد موزعة على حسب الترتيب الآتى :

	باللغة العربية واللغات الشرقية	باللغات الاوربية	المجموع الكلى
١ — المكتبة العامة	٢١٥٠٠ مجلد	٥٢٠٠٠ مجلد	٧٣٥٠٠ مجلد
٢ — مكتبة كلية الآداب	٢٥٠٠ مجلد	٥٠٠٠ مجلد	٧٥٠٠ مجلد
٣ — مكتبة كلية التجارة	٢٠٠ مجلد	٤٥٠٠ مجلد	٤٧٠٠ مجلد
٤ — مكتبة كلية الحقوق	١٦٠٠ مجلد	٢٥٠٠ مجلد	٤١٠٠ مجلد
٥ — مكتبة كلية الهندسة	٥٠٠ مجلد	٣٥٠٠ مجلد	٤٠٠٠ مجلد
٦ — مكتبة كلية الزراعة	٤٠٠ مجلد	٢٠٠٠ مجلد	٢٤٠٠ مجلد
٧ — مكتبة كلية العلوم	١٠٠ مجلد	٣٧٠٠ مجلد	٣٨٠٠ مجلد
	٢٦٨٠٠ مجلد	٧٣٢٠٠ مجلد	١٠٠٠٠٠ مجلد

وأما مكتبة المتحف اليونانى الرومانى فيوجد بها ٥٠٠٠ مجلد كلها باللغات الأوروبية .

وأما مكتبة البلدية ففيها ٦١٠٨٨ مجلدا ، منها ٢٧٦٩٣ مجلداً باللغة العربية واللغات الشرقيه و ٣٣٣٩٥ مجلدا باللغات الاوروبيه .

ومعنى هذا أن كل مافى مدينه الاسكندرية من مكتبات عامه لايحتوى إلا على ١٦٦٠٨٨ مجلدا أى مايقل عن ¼ مجلدات مكتبه الاسكندرية القديمه .

ويوجد فى القاهرة مكتبتان عامتان : المكتبه العامه لجامعة فؤاد الاول وفروعها فى مختلف الكليات ، ثم دار الكتب المصرية العامة .

أما مكتبة جامعة فؤاد الاول وفروعها فهى تحتوى على ٢٧٩٦٨٥ مجلدا موزعه كما يأتى .

	باللغة العربية واللغات الشرقية	باللغات الاوربية	المجموع الكلى
١ — المكتبه العامه ٢ — مكتبه كليه الآداب	٣٧٢٨٢ مجلدا	١٣٢٣٢١ مجلدا	١٦٩٦٠٣ مجلدا
٣ — مكتبه كليه التجارة	٢٣٤١ مجلدا	١١٧٣٣ مجلدا	١٤٠٧٤ مجلدا
٤ — مكتبه كليه الحقوق	٦٢٢٨ مجلدا	١٧٢٤٤ مجلدا	٢٣٤٧٢ مجلدا
٥ — مكتبه كليه الهندسه	٥٩٨٨ مجلدا	٣٤٥٣٢ مجلدا	٤٠٥٢٠ مجلدا
٦ — مكتبه كليه الزراعه	٢٠١٠ مجلدا	٨٧٠٠ مجلدا	١٠٧١٠ مجلدا
٧ — مكتبه كليه العلوم	١٢٢٣ مجلدا	١٨٥٢١ مجلدا	١٨٧٤٤ مجلدا
٨ — مكتبه الاحياء المائيه	١٣ مجلدا	٢٥٤٩ مجلدا	٢٥٦٢ مجلدا
	٥٤٠٨٥ مجلدا	٢٢٥٦٠٠ مجلدا	٢٧٩٦٨٥ مجلدا

ومعنى هذا أن مكتبة جامعة فؤاد الأول بما فيها من مكتبات كلياتها المختلفة لايزيد عدد مجلداتها عن $\frac{1}{2}$ مجلدات مكتبة الاسكندرية القديمة إلا قليلا .

أما دار الكتب المصرية العامة فهى تحتوى على ١٧٣و٥٩٥ مجلدا ، منها ٣٦٠ر٢٢٨ باللغة العربية واللغات الشرقية ، و ٨١٣ر٣٦٦ باللغات الأوروبية .

ومعنى هذا أيضا أنها تقل عن مكتبة الاسكندرية بمقدار ٨٢٧ر١٠٤ مجلدا ، وأخيرا فكل ماأحصيناه فى جميع هذه المكتبات من مجلدات لايزيد عن ٩٤٦ر٠٤٠ر١ مجلدا ، وبالتالى فهو لايزيد عن مجلدات مكتبة الاسكندريه القديمة إلا بمقدار ٩٤٦ر٣٤٠ مجلدا .

ولنعد الآن بعد هذا الاحصاء إلى مكتبة الاسكندرية القديمة :

هـذه المجلدات العديدة التى جمعت بفضل عناية الملوك من مختلف بـلاد العالم القديم ، كانت موزعة بين مؤسستين : أما المؤسسة الأولى ، وهى جزء من الجامعـة ، فـكانت تعتبر المـكتبة الرئيسية ، وتحتوى على ٤٠٠ر٠٠٠ مجلد .

وأما المؤسسة الثـانية ، وهى جزء من معبـد الآله « سيرابيس - Sérapis » فـكانت تعتـبر المكتبة الفرعيـة ، وتحتوى على ٣٠٠ر٠٠٠ مجلد . وقد زاد عدد مجلدات هذه المـكتبة الفرعية زيادة كبيرة بواسطة المـكتبة التى نقلها أنطونيوس من مدينة فى آسيا الصغرى ، كانت تدعى فى ذلك الوقت برجامم - Pergamum ، وأهداها إلى كليوباتره .

ولقد بلغت مكتبة الاسكندرية بفرعيها من الثروة العلميـة ، ومن دقـة النظام ، ومن حسن الادارة ، ومن كثرة النفقات درجة لاتقارن فى ذلك العالم القديم ، حتى لقد اتهم الـكاتب المشهور « سنيكا - Seneca » وهو أحد أدباء الرومان ومن أكبر فلاسفتهم ، الغاية من تلك المـكتبة فهو يرى أنها تمثل مظهرا من مظاهر البذخ والثراء لملوك الاسكندرية . ولو أن هـذا الـكاتب اللاتينى عاش ربع قرن فقـط أكثر ممـا عاش ، لرأى بنفسه الخدمات العلمية الجليـلة التى أدتها البقية الباقيـة من مكتبة الاسكندرية إلى مكتبـة روما : ذلك أنه فى أثنـاء حـكم الامبراطور « دومتيانس Domitianus » شبت النار فى روما ، وكان ممـا ذهب ضحية لذلك الحريق المـكتبات العامة فى العاصمه ، ولم يجد الامبراطور حينئذ بدا من أن يرسل بعثة خاصة إلى الاسكندرية مهمتها الوقوف على مافى مكتبتها من مجـلدات ، ثم نسخ مايمكن نسخـه منهـا ، وتصحيح مابقى لديهم من كـتب ، لـكى يكـون ذلك نواة لاعادة مكتبـة روما ، ولم يكن فى الاسكندرية حينئذ إلا المـكتبة الفرعيه فقط .

استمرت مكتبه الاسكندرية منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حتى حوالى منتصف القرن الأول قبل الميلاد وهى تمثل جزءا كبيرا من من النشاط العلمى والثقافه الانسانيه ، لا فى جامعه الاسكندرية وحدها بل فى العالم المتحضر إذ ذاك .

ولقد أدرك ملوك البطالمه قيمة هذه المهمة فكانوا يختارون لادارة شئونها وللاشراف عليها اكبر أساتذة العلم وأئمة الأدب كى يزيدوا فى ثروتها العلمية بما ينتحونه من مؤلفات ، وفى ثروتها الأدبية بما كان لهم من شهره ومكانة بين المعاصرين .

وأول من عين لادارة شئون هذه المكتبة هو «زينودوتس Zenodotos» من مدينة كانت تعرف قديما باسم « Ephesus » فى آسيا الصغرى ، وقد اشتهر بمكانته فى الشعر القصصى وكان أول أديب يتصدى لنقد أشعار « هوميروس ـ Homerus » الشاعر اليونانى العظيم .

ثم جاء من بعده « أبوللونيوس ـ Apollonius » وقد نشأ فى الاسكندرية ثم ذهب إلى جزيرة رودس على أثر خلاف بينه وبين « كاليماخوس » ولكنه عاد ثانية إلى وطنه كى يتولى شئون المكتبة ، وينتج للأدب كتبا عديدة .

وبعد هذين الأديبين جاء العالم الكبير المدهش « إراتوستينيس Eratosthenes» الذى ملأت شهرته الدنيا وغزت معارفه الأرض فكان يعتبر وحده دائرة معارف ، وهو فوق مكانته فى الفلسفة ، وفى الفلك ، وفى الجغرافيا قد كتب كثيرا فى النقد وفى الأدب .

وهكذا قد توالى فى الاشراف على مكتبة الاسكندرية عالم بعد عالم

أو أديب بعد أديب حتى جاء قيصر إلى الاسكندرية ممثلا لسلطان روما على رأس كتائبه الرومانية .

وفى ذلك الوقت كان الخلاف شديدا بين كليوپاترة وأخيها على ملك مصر ، وأعلن قيصر بأنه إنما جاء لحسم النزاع وللتوفيق بين المتخاصمين ولكنه أظهر من التحيز لكليوپاتره ما اعتبره أهل الاسكندرية ماسا بكرامتهم فأجمعوا أمرهم ، وثارت ثائرتهم ، وأحاطوا بقيصر وجنوده ، وكاد الأمر ينتهى لهم ، لولا استماتة قيصر والتجاؤه إلى أعمال التخريب فكان مما صنع أن أعطى الأوامر لجنده بحرق الأسطول المصرى ، وكان مرابطا فى ميناء الاسكندرية قريبا من الحى الآهل بالجامعه ، وحصل هذا فى عام ٤٧ ق. م. انتقل اللهب من الأسطول إلى المكتبة الرئيسية فأتى عليها وذهبت ضحيته ثروة علمية وأدبية لاتعوض ، وكانت هذه أولى وأعظم النكبات التى أصيبت بها جامعة الاسكندرية . ولقد روى كتاب الرومان أنفسهم هذا الحادث بشىء من الأسف .

بقيت المكتبة الفرعية وحدها ، وكانت كما ذكرنا جزء من معبد الآله « سيرابيس » . ونستطيع أن نعتبر هذا الحادث حدا فاصلا بين عهدين متباينين : فى العهد الأول منهما كانت الاسكندرية تعتبر أهم مركز للنشاط الثقافى فى العالم المتحضر إذ ذاك ، وفى الثانى منهما بدأ نجم الاسكندرية يأفل وسيادتها الأدبيه تضعف ، إذ أن روما بدأت تستلفت الأنظار ، وتشغل رجال العلم والأدب كما كانت تشغل رجال السياسة والحكم . ومع ذلك فقد نهضت الاسكندرية فى عهد كليوپاتره واستطاعت أن تسترجع مجدها السياسى ، وتفرض سلطانها على الحوض الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، فكانت أكبر منافس لروما فى سيادة العالم إذ ذاك ، ولكننا إذ نذكر هذا نقرر فى نفس الوقت

أن هذه النهضة كانت أشبه بنهضة المحتضر ، فكان تتابع الأحداث السياسية يستنفد مجهود الدولة ، ولذا لم يفكر أولوا الأمر فى إعادة المكتبة ، وبقيت الجامعة بما فيها من طلاب وأساتذة معتمدة على المكتبه الفرعيه فقط .

استمرت هذه المكتبة بدورها تمثل نشاطا أدبيا محدودا حتى عام ٣٨٩ بعد الميلاد ، وحينئذ قامت فى الاسكندريه ثورة داخلية عنيفه نستطيع أن نسميها ثورة دينية ، إذ أنها كانت بين المسيحية والوثنية . انتهت هذه الثورة أيضا بأعمال التدمير ، وكانت المكتبه ومعها المعبد لدينى ضحية لذلك التخريب .

لقد كان هذا الحادث مثارا لخلاف طويل وآراء متباينه بين المؤرخين فنهم من ينسبه إلى العرب أيام فتحهم لمصر ، ومنهم من ينسبه إلى المسيحيين أثناء الثورة التى أشرنا اليها ، ونحن أمام هذا الخلاف لانستطيع أن نمضى سريعا دون ابداء مالدينا من وجهة نظر .

ونحن إذ نساهم برأى فى هذا الخلاف إنما نعتمد فى ذلك على تتبع الحوادث وفهم الوقائع التاريخيه بعد ربطها جميعاً بعضهـا ببعض ، ولسنا نبغى من وراء هذا غير الانصاف العلمى .

إن من ينسب هذا الحادث ، من المؤرخين إلى العرب لايعتمد فى ذلك على دليل مادى ، بل على العكس من ذلك نستطيع أن نذكر من الأدلة مايكفى للبرهنة على أن ضياع هذه المكتبه كان نتيجة لثورة المسيحيين ضد الوثنيين .

أولا : كان طابع الثورة كما رأينا طابعاً دينياً ، وكان أهم مظاهرها فى المدينة هو التخريب ، وليس من شك فى أن الهدف الاول لذلك التخريب هو معابد الآلهة الوثنية ، ثم تأتى بعد ذلك معاهد العلم التى كانت تدرس فيها تعاليم الديانة الوثنية ، أو تحفظ فيها آثار تلك التعاليم ، واذن فقد كانت مكتبة

الاسكندرية الثانيه هدفا مزدوجا لتلك الثورة ، اذ أنها كانت تكون جزء من معبد الاله « سيرابيس » ، أكبر اله وثني اذ ذاك ، وكانت فى نفس الوقت مستودعا هاما لآثار تلك الديانه الوثنيـة . ثم أن أعمال التخريب هذه لم تقف عند هذا المعبد وحده ، بل تناولت غيره من المعابد الوثنية فى سائر المدن المصرية ، من الاسكندرية حتى جزيرة الفيلة ، فى أقصى الحدود المصرية من الجنوب .

وأنه لمن الحق أن نقرر أن هذه الاعمال كانت تصدر عن المسيحيين بدافع الايمان الكامل بمبادىء المسيحية ، والعمل على نشرها ، ولن يتم لهم ذلك الا اذا زالت آثار الوثنية التى لم تكن فى عقيدتهم الا كفراً وضلالا .

ثانيا : لم نعثر حتى اليوم على أثر يثبت أن هـذه المكتبة كانت موجودة فى الفـترة التى بين الثورة المسيحية فى الاسكندرية وفتح العرب لمصر أيام عمر بن الخطاب .

ثالثاً : ان ماعرف عن سياسة العرب فى فتوحهم لايدل على أنهم كانوا يلجئون الى أعمال التخريب فى المعابد ، بل على العكس كانوا يحاولون جهدهم الاستيلاء على الكنائس والمعابد سليمة كى تحول فيما بعـد الى مساجد ، وقد رأينا من آثار ذلك فى بلاد الشام وفى القسطنطينية ، وفى الاندلس . ولعل هذا المظهر وحده هو الذى دعا كتاب الغرب الى أن يقفوا من ذلك موقف الحيرة والتردد .

هذه هى النهـاية المحزنة لمكتبة الاسكندرية بفرعيها ، غير أن ذلك لم ينقص شيئا من القدر العظيم الذى ساهمت به فى رفع مكانة الاسكندرية الادبية أيام البطالمة ، وكذلك لم تنس الاجيال القادمة ذلك الدور الهام الذى قامت به على مسرح الثقافة الانسانية .

لقد أشرنا فيما مضى الى أن حضارة الاسكندرية قامت على أسس حضارتين

قديمتين . أولاهما عن الحضارة المصرية ، والاخرى هى الحضارة اليونانية .

وفى الحق أن جامعة الأسكندرية قد استطاعت أن تمزج هاتين الحضارتين وتستخلص منهما حضارة جديدة فى أفكارها ومظاهرها ، ولذا فقد نسبها العلماء الى الاسكندرية واستمروا يطلقون عليها « الثقافة الاسكندرانية » .

هذه الثقافة الجديدة فتحت للعلماء آفاقا واسعة فى ميادين المعارف الانسانية ، فهم بعد أن فهموا القديم نقدوه ، ثم أنهم لم يقفوا عند هذا الحد بل ابتكروا وأنتجوا . وهكذا أصبح لجامعة الاسكندرية فى الدراسة اتجاهات أخرى . وفى الانتاج مذاهب خاصة ، وذلك بفضل ماوصل اليه العلماء من اكتشاف ، سواء أكان فى ميدان المعرفة النظرية كالأدب والفلسفة ، والرياضة ، والجغرافيا ، أم فى ميدان المعرفة العملية كالطب ، والهندسة .

وليس من السهل أن نرسم فى هذه العجالة الخطوط الأساسية لكل هذه العلوم ، ثم نبين مدى ماتمتاز به ثقافة الاسكندرية فى كل هذه النواحى ، ولكننا مع ذلك لانستطيع أن نمضى سريعاً دون أن نقف وقفة يسيرة فى أحد هذه الميادين العلمية فنحلله لنتبين مبلغ نشاط جامعة الاسكندرية فى هذه الناحية ومقدار ما امتازت به من اتجاهات ومذاهب ؛ ونعنى بذلك ، الميدان الأدبى بمعناه الضيق ، أى فن القول .

واذا كنا قد تخيرنا هذا الميدان من ميادين المعرفة عند القدماء ليكون نموذجاً لغيره فذلك لأنه فى الواقع يعتبر أهم مظهر من مظاهر الثقافة عند القدماء . كانت الغاية الأولى من الأدب عند اليونان هى خدمة السياسة ، والدين ، والمجتمع وما عدا هذه النواحى الثلاث فكان يعتبر شيئا ثانويا فى حياة الأدب . وعلى هذا الأساس كان مظهر رقى الأدب ، وعظمة الأدباء . جاءت من بعد ذلك جامعة الاسكندرية فرفضت هذه القواعد . وحطمت تلك الأغلال ، واستكثرت على المخيلة الأنسانية والاحساس الفنى أن يقفا فى هذه

الدائرة الضيقة المحدودة ، فسمت بالأدب الى الأجواء العليـا ، وذهبت به إلى الآفاق البعيدة ، وجعلته يشرف على كل فروع المعـارف الأنسانيـة ، فيعجب بالجمال فى كل منها ، ويساهم بقسط فيما ينتج بعد ذلك من ثمر .

من ذلك أن أصبح الحب الموضوع الرئيسى للادب عند أدباء الأسكندرية فتناولوه بالوصف والتحليل ، وأكثروا من القول فيه ؛ حتى لقد كاد يطغى على غيره من الموضوعات ويستقل بنتاج خيال الأدباء .

لقد أدرك هؤلاء الأدباء القيمـــة التى يمكن أن يكتسبها الأدب ، والشعر بوجه خاص ، حين يستعيض عن موضوعات البطولة ، التى لايحس بهـا ولا يدركها الا طبقة من الناس محدودة ممتازة ، بموضوعات الحب التى يحس بها ويدركها كل طبقات الشعب ، وفى ذلك بلا شك ، كسب عظيم للادب . ثم أنهم فوق ذلك قد حاولوا أيضـا ، ونجحوا فى تلك المحاولة الى حد ما ، أن يدخلوا العلم فى الشعر ، فكان ذلك بمثابة منبع خصيب ، ومدد جديد ، ولعلهم أحسوا بأن الشعر قد استنفد موضوعاته القديمة ، ومل كل مصطلحاته الأولى ، وأصبح يبدو للناس كما يبدو الرجل الهرم ، فأرادوا بذلك ان يعيدوا اليه شيئاً من الفتوة ، ويستكثروا من ثروته اللغوية، ومنذ ذلك الوقت أصبح هـذا النوع من الشعر ميدانا يتسابق فيه الشعراء .

نعم ، قد أضعف هذا الاتجاه فيما بعد ، القيمة الادبية للشعر ، وذلك حين استحال الى نوع من النظم الجاف ، الذى يتركز على الفكرة الخالصة ، ويبعد بعداً تاماً عن الخيال ، والعواطف ، والاحساس . وهنا يجب أن نستدرك سريعاً فنقرر أن أدباء الاسكندرية لم يعرفوا هـذه المرحلة بعـد ، ولم يدرك عصر الاسكندرية ، بل ولا عصر روما من بعدها الا عظمة هذا النوع من الشعر ومجده .

وكذلك نجد من الاتجاهات الجديدة الواضحة عند أدباء الاسكندرية ان

الشعر أصبح فى نفسه غاية تقصد لذاتهـا ، فهم الذين اوجدوا بحق هـذا المبدأ المشهور « الفن للفن » ، فلم يكونوا ليستكثروا مايبذلونه من وقت وجهد طويلين فى سبيل صقل الشعر ، او فى البحث عن الأوصاف الجميـلة ، أو فى ابتـكار المحسنات البديعية الرائعة .

ولم يكن هذا الاتجاه الخطير فى الواقع إلا صدى لتعاليم ذلك العصر ، وإجابة لرغبة كانت تتغلغل فى نفوس الـكثيرين : تلك هى تعاليم « زينون Zenon » و « أبيقور Epicurus » حينما بدأت المدينـة تتحلل من قيود حكم الدولة ، وبدأ الانسان يلقى عن كاهله أعباء قوانين المجتمع المرهقة الثقيلة ، ويحس بكيانه فى الوجود ، ويشعر بحاجته الملحة الى الحرية والاستقلال . انتشرت هذه التعاليم وتجاوبت أصداؤها فى مختلف المدن الجامعيه ، ثم تناولت آثارها كل أنواع الفنون ، فـكان هناك مايشبه الثورة على القديم والنزوع الى الجـديد المشبع بروح الصراحه والحرية والاستقلال . ولقـد كانت جامعـه الاسكندرية بلا شك مركـز هـذه الثورة الأول كما كان أدباؤها وعلماؤها هم قادتها وزعماؤها .

هذه الأنواع الجديدة فى فن القول استلزمت بطبيعة الحال من أدباء الاسكندرية أنواعاً جديده فى الصيغه وفى الفكـر ، وفى أوزان الشعر ، إذ لم تـكن أوزان الشعر عند القدامى مثل مانعهده فى الأدب العربى ، بل كان لـكل نوع من فن الشعر وزن خاص يلائمه ، ويتمشى معه طولا وقصراً .

هذه الحركة الادبيه الواسعه ، وتلك الاتجاهات الجديدة المتعددة ، أوجدت عند أدباء الاسكندرية مذهباً خاصاً فى الادب أثر عنهـم وعرف باسم المذهب الاسكندرى ، ويمـكن تحديد هذا المذهب بأنه (العناية الشديدة والحرص التام على جمال اللفظ) .

انتشر هذا المذهب بسرعه فى كل المدن الجامعيه من حوض البحر الابيض المتوسط ، وبدأ يغزو معاقل الادب القديمه معقـلا بعد آخر ،

فتتلمذ عليه كثير ، وأخذت آثاره تظهر فى أتينا وفى رودس وفى كوس وفى برجامم وفى أنطاقيه وفى سيرا كوز وفى قورين وفى روما .

وإنه لمن المؤسف حقاً أن لم يترك أدباء الاسكندرية آثارا كبيرة ، ولم تبق لنا الاحداث الا بعض قطع جميلة ، ولكنهم مع ذلك قد تركوا كثيراً من التلاميذ الذين اعتنقوا مذهبهم ، وواصلوا عملهم ثم نقلوا عنهم ، هؤلاء التلاميذ هم أدباء الرومان ؛ ومن هنا ندرك فى يسر مدى صدق هذا التعبير (Rome était l'héritier d'Alexandrie, comme Alexandrie était l'héritier d'Athènes).

أى أن (روما كانت وارثة الاسكندرية كما أن الاسكندرية كانت وارثة لأثينا) وكذلك نستطيع أن ندرك قيمه هذه العبارة المأثورة التى يرددها الكاتب الفرنسى « Couat » فى كتابه الذى سبقت الإشارة اليه ص ٥١٧

“Les Alexandrins ont rendu à la Grèce héroïque le service que rendirent les Latins aux Alexandrins eux-mêmes; c'est par ceux-ci ou par leurs imitateurs que nous le connaissons„.

أى (لقد أدى الاسكندريون الى اليونان الابطال نفس الخدمه التى أداها اللاتينيون الى الاسكندريين أنفسهم ، ونحن لم نعرف هؤلاء الاسكندريين إلا بواسطه اللاتينيين أو بواسطه من قلدوهم » .

ومن هنا ندرك أيضا مبلغ الحاجه لمعرفه الثقافه الرومانيه القديمه بالنسبه للمصريين ، فمعارفنا وآثارنا . وثقافتنا فى أيام نهضه الاسكندرية لاتزال تتراءى لنا كحلقه مفقودة من سلسلة حضارتنا الطويلة . ولن توجد هذه الحلقه إلا بدراسه الثقافه الرومانيه القديمة ؟

دكتور حسن عونه

تقـــــرير

عن مهمة الدكتور أبو العلا عفيفي فى مؤتمر المستشرقين

الحادى والعشرين الذى عقد بباريس من ٢٣ — ٣١ يوليو سـنة ١٩٤٨

حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب . . .

بعد التحية :

رداً على خطاب إدارة الجامعة الدورى الخاص بحضرات أعضاء هيئة التدريس الذين انتدبوا فى مناسبات مختلفة لمؤتمرات أو رحلات علمية أو احتفالات . . الخ .

أتشرف بأنى قـد انتخبت فى الصيف الماضى ضمن وفد الحكومة فى مؤتمر المستشرقين الحادى والعشرين الذى عقد بباريس فى المدة ما بين ٢٣ الى ٣١ يوليو سـنة ١٩٤٨ .

كان بالمؤتمر عشرة أقسام تناولت مختلف الدراسات المتصلة بعدد كبير من بلاد الشرق القديمة والحديثة فى النواحى اللغوية والتـاريخية والأدبية والفلسفية والاجتماعية والأثرية .

وكانت تلقى بكل قسم بحوث ومحاضرات (عدا المحاضرات العـامة) لا يقل عددها عن ثلاثة فى كل صباح تعقب كل بحث أو محاضرة مناقشة .

فكان من المستحيل على عضو المؤتمر أن يحضر جميع ما ألقى فيه من البحوث ، وكان عليه أن يختار من بينها ما هو ألصق بدراسته ولذا اخترت القسم الثامن من هذه الأقسام وهو القسم الخاص بالدراسات الإسـلامية ، فحضرت ما ألقى فيه من البحوث وألقيت فيه بحثاً عنوانه . . .

Some Aspects of the influence of Hermatic literature in Moslem thought

وتركت خلاصة عن هذا البحث للنشر فى أعمال المؤتمر . أما البحث فى صورته الكامله فالمأمول أن ينشر فى مجـــلة مدرسة اللغـــات الشرقية بجـــامعة لندن
The Bulletin of the London school of Oriental studies

كان هذا أول مؤتمر دولى حضرته ، ولا شك عندى فى عظم الفائدة التى تعود على مصر من حضور أبنائها لهذا النوع من المؤتمرات حيث يتصل العلماء الوافدون من جميع أقطار العالم والمشتغلون بموضوعات واحدة فى ميدان واحـــد اتصالا مباشراً ، وحيث يتبادلون الأفكار ، ويقف كل منهم على أعمـال الآخرين ومدى تقدم مادتهم على أيديهم .

ولـكن لسوء الحظ لم تتحقق هـــذه الفائدة على الوجه الأكمل فى هذا المؤتمر بالذات لضخامته وكـثرة عدد أعضائه ، وعدد البحوث التى ألقيت فيه . وقد أثارت هذه الناحية قلق بعض أعضـاء المؤتمر فعرضوا فى آخر جلساته اقتراحاً كان الغرض منه التحوير فى أساليب مؤتمرات المستشرقين فى المستقبل وقصرها على مواد معينة تبحث كل ماده فى مؤتمر خاص ، لأنهم رأوا أن المؤتمر كان بمثابة عشرة مؤتمرات بدلا من مؤتمر واحد ولـكن هذا الإقتراح رفض بأغلبية الأصوات على أساس أن لمؤتمر المستشرقين فى صورته التقليديه يحقق معانى أخرى اجتماعية وثقافيـــة إلى جانب الفوائد الأكاديمية البحتة .

وختاما تفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟

المخلص

أبو العلا عفيفى

تقـــــرير

عن مؤتمر المستشرقين الدولى الحادى والعشرين

الذى انعقد فى باريس ـ فرنسا من ٢٣ ـ ٣١ يولية سنة ١٩٤٨

تفضل مجلس كلية الآداب ، ومجلس جامعة فاروق الأول فندبانى لتمثيل الجامعة فى ذلك المؤتمر وقد سافرت لهـــذا الغرض من الاسكندرية بحراً يوم ١٦ يولية فوصلت مارسيليا يوم ٢١ منه وسافرت فى نفس اليوم الى باريس .

وفى اليوم التـــالى زرت ادارة المؤتمر وتعرفت الى القائمين على تنظيمـــه ، وتسلمت مايخصنى من أوراق وكتب .

وقد سافر لهـــذا الغرض وفد يمثل الحكومة المصرية ، وممثلون لجامعة فؤاد الأول وبعض الهيئات فى مصر .

وامتازت دورة المؤتمر هذه المرة بكثرة عدد الأعضاء الذين اشتركوا فيها من مختلف الدول وبكثرة البحوث التى قدمت اليها . وربما كان ذلك راجعاً لطول الفترة التى لم ينعقد فيها المؤتمر بسبب الحرب (عشر سنوات) .

افتتح المؤتمر أعماله يوم الجمعة ٢٣ يوليه بدار مدرسة العلوم السياسية حيث عقدت أغلب الجلسات . وانتخب أعضاء اللجنة الدوليـة الاستشارية للمؤتمر ، (وكان من بينهم عضو مصرى) . ثم نوقش برنامج العمل وأقر ، وقسمت فروع المؤتمر إلى عشرة ـ من بينها قسم للدراسات المصرية ، وقسم للدراسات السامية ، وقسم للدراسات الإسلامية .

كان هـذا القسم الأخير هو القسم الذى يتصل بدراساتى فحضرت كل اجتماعاته وألقيت فيه بحثاً أعددته بالانجليزية موضوعه :

Abd-ul-Kahir's theory in his "Secrets of Elequence" - a Psychological Approach.

وقد دللت فيه على أن عبد القادر الجرجانى المؤلف الاسلامى الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى صاحب نظرية فى النقد الأدبى وأن هذه النظرية تقوم على أساس سيكلوجى ، وناقشت مافى النظرية من أصالة فى التفكير والبحث ، وبينت ما بينها وبين دراسات أرسطو فى الشعر والخطابة من صلة . وقد عقب « البرفسور جب » على البحث أثناء مناقشته وأبدى بعض الملاحظات .

هذا وقد اشتركت فى المناقشات التى دارت فى كثير من اجتماعات هذا القسم كما حضرت ما أمكننى حضوره من اجتماعات الأقسام الأخرى ومن المحاضرات العامة والتذكارية وانتهزت الفرصة فزرت كليات جامعة باريس وبيوت الطلبة واطمأننت على دراسة بعثة القسم فى « السربون » وقابلت الكثيرين من المعنيين بالدراسات العربية والإسلامية من شرقيين ومستشرقين وتبادلت وبعضهم البحوث ، وأحضرت مجموعة من قوائم الكتب المنشورة فى باريس وليدن وغيرهما عن عن الدراسات الشرقية وتحدثت هناك إلى بعض أساتذة الساميات تمهيدا لدعوة واحد منهم لزيارة الكلية مدة لإلقاء محاضرات بها بعد التمهيد الضرورى لذلك عند أولى الأمر فى الجامعة .

واشتركت فى كثير من الاستقبالات التى أعدت لمندوبى الهيئات الرسمية وفى زيارة المتاحف وغيرها ، وبعد أن انتهى المؤتمر ترددت أياماً على المكتبة الأهلية بباريس للاطلاع على ما بها من مخطوطات شرقية .

وقد لوحظ فى هذا المؤتمر بوجه عام ان مصر كانت ممثلة تمثيلا قوياً وأن معظم أقسام المؤتمر ألقيت فيها بحوث من أساتذة مصريين .

وعمل ممثلو مصر فى المؤتمر لضمان عقد الدورة التالية فى مصر وتقدم سعادة رئيس الوفد باقتراح فى هذا بالنيابة عن الحكومة المصرية . ولكن تقرر أخيراً أن يعقد المؤتمر دورته الثانية والعشرين (بعد ثلاث سنوات) فى الآستانة .

ومن ضمن ماوافق عليه المؤتمر فى جلسته الختامية اقتراح تقدم به أحد الأساتذة المصريين ذلك أن تعتبر اللغة العربية إحدى لغات المؤتمر فى قسم الدراسات الإسلامية .

وقد غادرت فرنسا بعد انتهاء المؤتمر على أول سفينة أمكنني أن أجد عليها مكاناً وكان ذلك يوم ٦ أغسطس سنة ١٩٤٨ فوصلت الاسكندرية يوم ١١ منه .

وعلى هذا كانت إقامتي في فرنسا من أجل المؤتمر ستة عشر يوماً ، وكانت مدة غيابي عن مصر في هذه المهمة ٢٧ يوماً .

وقد رجعت من المؤتمر مطمئناً إلى أعماله من وجهة النظر المصرية والعربية ، مؤمناً بضرورة تمثيل الجامعة دائماً في مثل هذه المؤتمرات ، وبضرورة مساهمة اساتذة الجامعة في بحوثها ليشاركوا في نهضة العلم وليبرزوا جهود جامعة الاسكندرية فيها ، وليعقدوا بينهم وبين زملائهم من الدول الأخرى صلات شخصية . ولضمان النجاح في هذا ينبغي أن تمثل فروع الدراسات التي يتناولها هذا المؤتمر أو ذاك بأساتذة ذوي بحوث معروفة ، وأن تهيأ لهؤلاء الممثلين الوسائل المادية والأدبية الضرورية التي تعينهم على أن يظهروا بالمظهر اللائق بمهمتهم ، وأن تتولى الجهات الرسمية تذليل العقوبات التي يصادفها المندبون في أمور سفرهم حتى لايشغلوا بها عن شئونهم العلمية الضرورية .

هذا وإني شاكر للجامعة وللكلية ما أفاضا على في الندب لهذه المهمة من شرف كبير ؟

محمد خلف الله

أستاذ الادب العربي بكلية الآداب
بجامعة فاروق الاول

هيئة الأمم المتحدة

حلقة الدراسات الاجتماعية للشرق العربى : بيروت ١٩٤٩

(وفـــد مصر)

خطط الاصلاح الاجتماعى والاوضاع التاريخية والثقافية فى الشرق العربى

محاضرة للدكتور سليمان حزين

الاستاذ بجامعة فاروق الاول . وعضو وفد مصر

يسير الاصلاح الاجتماعى فى أمريكا وغرب أوروبا على أساس دراسة المجتمع ونظمه فى أوضاعها الحالية ، ومحاولة رسم الخطة للاصلاح فى ضوء هذه الدراسة ، ويحاول بعض من يتناولون الاصلاح هناك أن يتتبعوا بعض النظم الاجتماعية من حيث تاريخها وتطورها على الزمن وقابليتها للتجديد والاصلاح . ولكن هذا المنحى من الدراسات التى تتصل بالتاريخ الاجتماعى فى بلاد الغرب لايؤخذ به إلا بقدر محدود . ذلك أن النظم والاوضاع هناك معظمها مستحدث نسبياً ، لايكاد تاريخه يرجع إلى أكثر من قرون قليلة . بل إن كثيراً من تلك النظم لايرجع إلى أبعد من عصر النهضة الصناعية الحديثة فى تلك الاقطار . وبعبارة أخرى ليس للنظم الاجتماعية التى يراد تناولها بالاصلاح هناك تاريخ طويل معقد ، فضلا عن أن أغلبها نظم متجانسه لأنها نشأت فى عصر حضارى واحد .

ويسير الشرق العربى الآن نحو دراسة الأحوال الاجتماعية ومحاولة تناولها بالاصلاح ورسم الخطط العملية لذلك . والاتجاه السائد هو أن نقتفى أثر أمم الغرب وأمريكا فى هذا الميدان ، فندرس المجتمع فى أوضاعه ونظمه «الحالية» ،

ونرسم خطة الأصلاح فى ضوء هذه الدراسة . ومع ذلك فان للشرق ظروفه الخاصة التى تجعل اتباعنا هذه الطريقة واكتفاءنا بدراسة الاحوال الراهنة غير كافيين لرسم خطة حكيمة ومستنيرة للاصلاح الاجتماعى .

ولبيان ذلك أود أن استعرض بعض ما انتهت عليه دراسات مبدئية قمت بها فى جامعة فاروق الأول خلال السنوات الأخيرة . وانصب أغلبها على البحث فى مقومات الحضارة وحياة المجتمع ونشأة نظمه الاساسية فى مصر وبعض أمم الشرق العربى . وكان طبيعياً أن يتبين من هذه الدراسة أن كثيراً من أوضاعنا ونظمنا الحالية إنما هى من تراث الماضى فى أدواره المتعاقبة . فأمم الشرق تجمع فى حياتها ونظمها القائمة بين الماضى والحاضر، بل إنها من بعض النواحى تعيش فى الماضى بقدر ماتعيش فى الحاضر أو فى المستقبل . ومع ذلك فان استمساكنا بالقديم ونظمه ليس معناه بالضرورة أننا محبون للمحافظة على القديم ، وإنما معناه الصحيح أن كثيراً من نظمنا الاجتماعية قد نشأ فى بيئاتنا نشأة طبيعية أصيلة ، ولم يكن مستعاراً من الخارج كما هى الحال فى غير قليل من النظم الاجتماعية والثقافية والدينية فى غرب أوربا أو فى أمريكا . ولما كانت تلك النظم فى بلاد الشرق قد نشأت فى البيئة وتغذت بلبانها ، فقد عاشت وعمرت لانها كانت صالحة للبقاء والتعمير . ولذلك فان أهل الشرق ، لاسيما جماعاتهم الزراعية فى بلد كمصر ، لم يجدوا ضرورة ملحة فى أن يغيروا كثيراً من تلك النظم . وليس من المقبول أن نفسر استمرار النظم واستقرار الاوضاع وصعوبة تناولها بالاصلاح والتغيير فى بلاد الشرق على أنه راجع إلى حب المحافظة على القديم ، فذلك تعليل ، إن صح من بعض نواحيه ، فهو أبسط من أن يفسر ماحدث فى تاريخنا الطويل ، وما اكتنف ذلك التاريخ من أحداث جسام ، اهتزت لها وتغيرت بسببها جوانب أخرى من حياة أبناء الشرق . وإذا نحن اتخذنا مصر على سبيل المثال ، فاننا نجد أن من الصعب أن نسلم بأن

المجتمع المصرى مجتمع جامد محافظ على القديم ، ونحن نعرف أن المصريين قد غيروا لغتهم التى يتكلمون والتى يكتبون أكثر من مرة خلال تاريخهم ، واستبدلوا بدينهم ديناً آخر مرة أو مرتين ، وجمعوا بين القديم والحديث فى كثير من مظاهر حياتهم وألوان ثقافتهم ، واتصلوا بالعالم الخارجى واقتبسوا عن أهله وحضاراته فى الشرق والغرب على السواء . بل إن المصريين كانوا مجددين حتى فى الجانب المادى والعملى من حياتهم وحضارتهم ، فالزارع المصرى فى الحقل جدد أدواته فى الزراعة والرى ونوع فيها على مر الزمن ، وجدد انواع محصولاته فأضاف اليها نباتات جديدة من وقت لآخر ، لاسيما بعد إدخال نظام الرى الدائم وظهور مايمكن أن نسميه الثروة الزراعية المصرية فى القرن التاسع عشر ، كما جدد أنواع الحيوان المستأنس وأضاف اليها ما لم يكن معروفاً من قبل . وكل ذلك قلب نظام العمل والاقتصاد الاجتماعى فى الريف والحقل المصرى وكاد يغير معالمه تغييراً شاملا . وحتى القرية ذاتها قد تغير فيها كثير من الاوضاع لاسيما فى العهد الحديث . فبعد أن كانت القرى مركزة متجمعة ، تقام فوق كومات صناعية من التراب يتضافر أفراد المجتمع القروى ويتعاونون فى إقامتها والمحافظة عليها لتبقى القرية بمأمن من غوائل الفيضان ، جاء نظام الرى الدائم وتضاءل خطر الفيضان وانعدم رى الحياض أو كاد ، فتفرقت القرى وظهرت « العزب » الصغيرة المتناثرة ، ولم تعد بالمجتمع القروى المصرى حاجة إلى أن يتضافر أفراده ويتعاونوا من أجل إقامة كومات التراب والمحافظة عليها . وبذلك كله تغيرت أوضاع القرية واهتز كيانها كوحدة للمجتمع الريفى فى مصر ، وظهرت مشكلات اجتماعية وقومية خطيرة ، هى التى نحاول الآن أن نتناولها بالاصلاح ، ولكن تشخيص الداء فيها يحتاج ولا شك إلى دراسة عميقة فى الماضى وفى تاريخنا الاجتماعى الحافل بالتغيرات والأحداث .

ومع ذلك فنحن إذا توسعنا فى الدراسة من نطاق مصر الضيق إلى نطاق

الشرق العربى عامة ، فاننا نستطيع أن نلمس عدداً من النواحى الأساسية فى تاريخ المجتمع أو المجتمعات البشرية فى هذا القسم الخطير من العالم القديم . وقد يكون من المفيد أن نشير إلى كل من هذه النواحى اشارة مجملة لنتبين مبلغ قيمتها بالنسبة لمن يريد تفهم التاريخ الاجتماعى والثقافى لهذا الشرق ، وقيمة ذلك بالنسبة لرسم خطط الاصلاح الاجتماعى فى المستقبل .

وأول مانلاحظه عن تاريخ الشرق أنه تاريخ طويل ، امتاز بالقدم والاستمرار وان كانت ظاهرة الاستمرار تختلف من حيث مدى انطباقها على مختلف جهات الشرق العربى ،فهى فى مصر واضحة تماماً ، اذ أن المجتمع الريفى مثلا تابع حياته فى القريه وعمله فى الحقل والزراعة دون انقطاع خلال فترة تقارب السبعة آلاف سنة ، أى منذ العصر الحجرى الحديث ، ولذلك فان نظمه استقرت وتبلورت على مر الزمن . أما فى جهات أخرى من الشرق العربى ومراكز حضارته القديمة كالعراق الاوسط مثلا فان ظاهرة الاستمرار لم تكن بمثل ما كانت عليه الحال فى مصر ، فالغزوات المختلفة وعهود الاضمحلال كثيراً ماأدت الى انقطاع الحياة الزراعية المستقرة فى بعض جهات العراق . ولذلك فان التاريخ الاجتماعى للعراق الاوسط لم يكن مطرداً ولا مستمراً ، وانما هو قد تشكلت نظمه وتغيرت بعض أوضاعه من عصر لآخر ، مما يجعل الدراسة عسيرة على من يريد أن يرسم خطة للاصلاح فى ضوء دراسة تاريخ النظم التى تحكم حياة المجتمع . وهناك مناطق أخرى فى الشرق العربى تبين من الابحاث الحديثة أن نشأة الحياة المستقرة والمدنية لم تكن فيها من القدم بما كانت عليه الحال فى مصر أو فى العراق ، ولكنها مع ذلك اتسمت باستمرار نظمها واستقرارها وتبلورها فى بيئتها المحلية على مرور الزمن . ومن تلك البلاد هضبة اليمن التى تمتعت بتربة صالحة ومناخ ممطر مناسب ، فانتقلت اليها القبائل البدوية من قلب الجزيرة ومن الشمال ، ثم استقرت فيها واشتغلت بالزراعة

دون انقطاع ، ولكنها مع ذلك احتفظت بغير قليل من نظمها البدوية والرعوية . وقد تتيح دراسه التاريخ الحضارى وتاريخ الاقتصاد الاجتماعى بين قبائل اليمن المستقرة مايفيد المشتغلين بالاصلاح الاجتماعى وبرسم الخطط فيما يتصل بتوطين القبائل البدوية والانتقال بها من حالة البداوة الى حالة الاستقرار فى جهات اخرى من الشرق العربى فى الوقت الحاضر . فتجربة اليمن من هذه الناحية كانت تجربة تاريخية ناجحة ، زاوج بها أصحابها بين مجموعتين مختلفتين من النظم فى حياة البداوة وحياة الاستقرار . ولا شك أن لنجاحها أسباباً طبيعية وبشرية يحسن الالمام بها عند التفكير فى تجربة مماثلة فى بعض جهات الشرق العربى فى الحاضر أو فى المستقبل .

وثانى مانلاحظه فى تاريخنا الحضارى والثقافى والاجتماعى أنه ، وان كان تاريخاً مستمراً وحافلا بالتجديد ، ولو بدرجات تفاوت مداها من منطقة إلى أخرى ، فان « الجديد » فى ذلك التاريخ لم يكن دائماً لينسخ « القديم » . وإنما جمع سكان هذا الشرق العربى فى حياتهم المتجددة بين كثير من النظم القديمة والنظم الجديدة التى عاش بعضها الى جانب بعض . وقد ترتب على ذلك ، وعلى التوفيق بين القديم والجديد ، أن أصبحت نظمنا الاجتماعية فى جملتها معقدة غاية التعقيد ، رغم ما قد يبدو عليها من بساطة ظاهرة . بل إن بعض مجتمعات الشرق العربى الحديث ، ومنها مجتمعات المدن فى مصر مثلا ، يعيش فيها أكثر من جيل واحد . فالمجتمع الحالى هنا يأتلف من مجموعة من الاجيال ، وذلك من حيث النظم ومناحى الفكر والاتجاهات والنزعات بين أفراده . وقد أدى هذا الى تفاوت كبير فى النظرة الى الحياة وغاياتها ووسائلها المشروعة ، مما يعقد مهمة المشرع أو المصلح الاجتماعى ، بل مما قد يجعل نقطة البدء فى أية حركة جدية للاصلاح فى بلدان الشرق أن نعمل جاهدين للتقريب بين مختلف الأجيال التى يعاصر بعضها بعضاً فى الوقت الحاضر وفى أغلب بلدان الشرق الحديث ، وذلك حتى يمكن أن نهيىء الرأى العام لتلقى رسالة موحدة للاصلاح ، يؤمن بها ، وتعمل فئاته وأفراده على تحقيقها بوسائل متجانسة وبجهود متكاملة . وهكذا يبدو أن المشكلة الاجتماعية فى الشرق العربى ، وان لم يكن اساسها

اختلاف الطبقات وتعددها كما هى الحال فى جهات أخرى من العالم كالهند مثلا ، فان أساسها ذلك التفاوت بين « الأجيال » التى تعيش فى وقت واحد ، ولكن بتقاليد أو بعقليات وثقافات متفاوته ، ولا شك أن دراسة مدى ذاك التفاوت وتحديده ضروريان لتأتى خطتنا للاصلاح الاجتماعى متسقه مع احتياجات هذا المجتمع المعقد التكوين ، ولئن نحن سلكنا هذه السبيل من الدراسة فستتجه خططنا بالضرورة أول ماتتجه نحو الحد من ذلك المدى وتضييقه ، لاسيما فى ميدان الثقافة والتعليم وبث الروح الأجتماعية السليمة ، وغير ذلك من وسائل التقريب بين « الأجيال » ، على غرار مايعمل غيرنا فى التقريب بين « الطبقات » .

وهناك أمر ثالث نلاحظه ونسجله فى تاريخنا الطويل . ذلك أن الشرق العربى امتاز بالاتصال الثقافى والحضارى الشامل بين مختلف أجزائه وأقطاره . وكثير من النظم التى نشأت فى إحدى جهاته انتقلت إلى بقية أرجائه . فالبادية كثيراً ما أثرت بنظمها وتشريعاتها فى أرض الحضر والاستقرار . والمناطق الزراعية المستقرة كثيراً مانفذت منها معالم المدنية وألوان الفكر والثقافة إلى قلب البادية . والجهات الداخلية كثيراً ماطردت عناصرها وسكانها وقذفت بهم إلى السواحل . والسواحل ذاتها كثيراً مانفذ أهلها إلى جوف الجزيرة العربية ، يمدون الطرق ويمهدون للاتصال ، أو يسعون بالتجارة بين البحار المعتدلة فى الشمال والبحار الدفيئة فى الجنوب . لذلك كله فان انتقال المؤثرات والنظم من جهة إلى أخرى فى داخل نطاق الشرق العربى كان ظاهرة قديمة متجددة ، قد أثرت فى تاريخنا الاجتماعى وكيفته وطبعته بطابع عام هو الذى يجمع اليوم بين أقطار الشرق العربى ويؤلف منها اقليما واحداً كبيراً من الوجهتين التاريخية والاجتماعيـة ، أو الثقافية على أقل تقـدير . ولئن فرضت هذه الظـاهرة على المشتغلين بالأصلاح الاجتماعى شيئا ، فانها تفرض التعاون فى دراسة تلك التيارات الثقافيه والمؤثرات الاجتماعية التى نفذت عبر الشرق العربى من جهة

الى أخرى ، والتى قربت بين أقطار هذا الشرق تقريباً يتحتم معه أن تنسق الجهود والخطط عند ماتتناول هذا الشرق ومجتمعاته بالاصلاح . فضلا عن أن هذا الشرق كان على الدوام إقليما تتجاوب فيه الأصداء ، فما من حركة للاصلاح فى أحد أقطاره أو إحدى جهاته إلا وكان لها شىء من الصدى فى الجهة المجاورة أو المقابلة . كان هذا شأن الشرق فى تاريخه القديم والوسيط ، وسيبقى هذا شأنه فيما نحن مقبلون عليه من أيام .

والأمر الرابع والأخير الذى نود أن نسجله عن تاريخنا الاجتماعى والثقافى العام هو أن أقليم الشرق العربى يقع برمته فى قلب العالم القديم ، ويحتل بأقطاره بقعة هامة عند التقاء قارات ثلاث لكل منها مكانتها فى تاريخ البشر ، وعند مفرق بحار تختلف فى أوضاعها وسكانها ، فمنها بحار الشمال التى تقع فى المنطقة المعتدلة وتبدأ بالبحر المتوسط ثم تتجه إلى ماوراءه فى بحار الغرب والشمال . ومنها بحار الجنوب والمنطقة الدفيئة والحارة التى تبدأ بذراعين فى خليج فارس والبحر الأحمر وتتجه إلى بحر العرب والمحيط الهندى وما وراءه فى أقصى الشرق . ولذلك كله تعرض الشرق العربى فى تاريخه الحافل لتيارات وهجرات ومؤثرات حضارية وثقافية أتته من هضبة ايران وما وراءها فى بلاد الهند وتركستان ، ومن هضبة الأناضول وأرمينيا ، ومن البحر المتوسط وجزره وشواطئه اليونانية واللاتينية ، ومن شمال أفريقية ، أو حتى من قلب أفريقية السوداء - كما أتت أيضاً فى فترات معينة من بحار العرب الجنوبية وشواطىء المحيط الهندى . وقد أثرت تلك العوامل والتيارات الخارجية فى الشرق العربى بدرجات متفاوتة ، فتركزت فى بعض أطرافه ، ولكنها بلغت فى بعض الأحيان قلب الجزيرة الصحراوى ، ونفذت خلاله من جانب إلى الآخر . وقد يكون مفيداً فيما نحن بصدده أن نميز أهم مناطق الاحتكاك بالخارج ، ومنها العراق الذى اتصل فى تاريخه بهضبة ايران وكردستان وما وراءهما و تأثر

بذلك فى نظمه وحياة سكانه تأثيراً أدى إلى تعقيد تاريخه فى أكثر من جانب واحد ، خصوصاً وأنه تلقى مؤثرات كثيرة أخرى عن طريق حدوده العربية الملاصقة لبادية الشام أو عن طريق الخليج الفارسى والبحر . ومن مناطق الاحتكاك . كذلك ساحل لبنان الذى يصح أن يعتبر من أهم مناطق الاحتكاك الثقافى وأشدها طرافة بالنسبة للباحث . ففى هذه الشقة الجبلية الساحلية التقت حضارات البر وحضارات البحر ، وزاوج أهل هذا الساحل والجبل بين ألوان مختلفة من الثقافة بل ومن النظم . وظهر أثر ذلك التزاوج منذ أيام الفينيقيين الذين اتخذوا من هذا الساحل ومرافئه الصالحة مقراً وقاعدة نشروا منها ثقافة الشرق إلى الغرب ، ونقلوا اليها بعض ما كسبوا من احتكاكهم التجارى والفكرى . كذلك تلقى هذا الساحل غير قليل من مؤثرات الفكر الأغريقى ثم الفكر اللاتينى بعد ذلك إلى جانب ما كان يتلقاه دائماً من ظهيره الاقليمى فى داخل أرض سوريا والجزيرة ، بل وما كان يتلقاه من وقت لآخر من هضبة الأناضول وبلاد الحيثيين القدماء فى الشمال . لذلك كله كان لبنان مثالا للجمع بين المؤثرات الثقافية والتوفيق بينها ، على نحو يعتبر أنموذجاً لما تسعى اليها الانسانية من مزاوجة بين ألوان الفكر البشرى . ولكن ترتب على ذلك أن أصبح هذا البلد على صغر حجمه جامعاً من حيث نظمه الاجتماعية واتجاهاته الثقافية ، ومن حيث تنوع ألوان الفكر ومذاهب الطوائف . ولا شك أن هذا مما يجعل أمر الدراسة التاريخية معقداً وعسيراً ، ولكن نجاح ما قد تتكشف عنه تلك الدراسة من خطط الاصلاح قد يكون فى لبنان أكثر ضماناً منه فى غيره من البلاد ، ذلك أن أهله قد طبعوا بحكم صلاتهم الواسعة على رحابة الفكر واتساع الأفق والاستعداد للأخذ بوسائل التجديد .

ومثال آخر من مناطق الاحتكاك الثقافى والاجتماعى فى الشرق العربى هو مصر ، أرض الزاوية التى التقى عندها اليابس وافترق الماء . وقد قام تاريخ مصر

الطويل على الأخذ والعطاء ، فتأثرت بالعالم المجاور بل والعالم البعيد وأثرت فيهما ، وظهرت المؤثرات الخارجية فى مصر وتركزت فى بعض جهاتها على وجه الخصوص . فعلى حافات الدلتا مثلا التقت نظم البداوة ونظم الاستقرار ، وعلى الساحل الشمالى ظهرت المؤثرات البحرية التى بدأت بالاتصال بالعالم الأغريقى ، ثم تجددت فى العهد الحديث بالاتصال بالعالم الأوربى ، وتسربت تلك المؤثرات من الساحل إلى الداخل لاسيما فى المدن حيث التقت ثقافة الغرب بثقافة الشرق . وحتى الريف المصرى الذى قد يبدو لأول وهلة بعيداً عن المؤثرات الاجنبية لم يكن فى يوم من الأيام بمعزل عن تلك المؤثرات ، حتى فى أيام الأغريق والرومان . وها هو قد أخذ يشارك الآن فى تلقى مؤثرات التجديد والاحتكاك بالعالم الخارجى احتكاكا يمس حياة الريفيين وفكرهم مساساً بالغاً وعميقاً من بعض الوجوه . وظاهر أن دراسة مثل هذه المؤثرات فى المجتمع المصرى لاتقل أهمية عن دراسة الأسس والمقومات الأصيلة فى البيئة المصرية ، وما كان لها من أثر فى طبع الحياة والحضارة فى مصر بطابعهما الخاص الذى ميزهما على مر الايام .

تلك كلها أمور ومسائل عامة نلاحظها فى تاريخ الشرق العربى ومختلف أقطاره . وهناك مسائل أخرى عديدة نستطيع أن نجرى فى سردها وتتبعها ، ولكنها كلها تشهد بأن « الحاضر » فى هذا الشرق لايمكن أن ينفصل عن « الماضى » ، وبأن دراسة هذا الحاضر ونظمه دراسة عميقة لايمكن أن تتم ولا أن تثمر إلا إذا عدنا بتلك النظم إلى أصولها الأولى ، وعند ذلك تتكشف لنا الاوضاع الصحيحة لتلك النظم ، فنقبل على رسم خطط الاصلاح فى بصيرة ونور . ومع ذلك فيحسن بنا أن نسجل هنا نتيجة مبدئية وصلت اليها تلك الدراسات لاسيما فى مصر وبعض جهات العراق ، وهى نتيجة قابلة لشىء من التعديل بعد أن تتسع الدراسة وتزداد عمقاً ، ولكنها على كل حال

تنير السبيل أمامنا إذا نحن أردنا أن يجيء رسمنا لخطة الاصلاح متمشياً مع الأوضاع التاريخية والثقافية فى بلدان الشرق العربى وفى بلد كمصر او كالعراق بالذات .

وهذه النتيجة هى أن دراسة تاريخنا الاجتماعى والثقافى تتيح لنا ان نميز فى خطط الاصلاح بين مايتناول منها النظم « الأصيلة » فى البيئة المصرية ، وما يتناول النظم « الدخيلة » عليها . فبعض النظم الاجتماعية فى مصر أصيل فى بيئتها الطبيعية ، فيها نشأ وعلى مقوماتها استند وعاش خلال العصور . ومثل هذه النظم عريق فى القدم، وقد يرجع بعضها إلى أعصر ماقبل التاريخ . ومن ذلك مايتصل بالحياة الريفية وأوضاعها القروية ، ومنها مايتصل حتى بالمدن وحياة مجتمعاتها المدنية . وإذا نحن درسنا فترات التحول الاجتماعى فى تاريخنا المصرى الطويل فسنجد أن مثل هذه النظم الأصيلة لاتقبل التحوير والتغيير إلا فى رفق وفى حدود معينة ، وهى على كل حال لاتوضخ للتحول السريع ولا للثورة العنيفة . ولذلك ينبغى أن نرسم الخطط ليأتى اصلاحها عن طريق التطور البطىء والتقويم الرفيق ، فضلا عن أن بعضها قد يمثل مصدراً من مصادر القوة والحيوية فى حياة المجتمع ، مما يحسن معه الاحتفاظ به أو بعثه وتقويته إن كان قد جرى عليه الزمن ، فالاصلاح كثيراً مايقوم على إعادة البناء بمثل مايقوم عن الانشاء والتجديد .

ومن أمثلة هذه النظم الأصيلة ما أشرنا اليه من روح التضامن والتعاون بين سكان القرية المصرية التى نشأت فى الأصل على كومة من التراب يتعاون أهل القرية جميعاً على رفعها فوق مستوى الفيضان ، كما يتعاونون فى المحافظة عليها وإقامة الجسور حول حياض الزراعة من حولها وترتيب المواصلات المائية بين القرية وما جاورها إبان ارتفاع الماء وغير ذلك من المرافق التعاونية

التى عاشت بها القرية المصرية على الزمن آلاف السنين . وعندما جاء الرى الدائم وحل محل رى الحياض تغيرت الأوضاع ، ولم تعد هناك حاجة إلى أن تقام القرية فى مستوى أعلى من مستوى الأرض الزراعية ، بل لم تعد هنـاك حاجة إلى ان يتجمع السكان فى قرى كبيرة ، وظهر نظـام « العزب » الصغيرة المتفرقة التى أشرنا اليهـا من قبل . وبذلك كله دخلت القرية المصرية الكبيرة فى دور من الانحلال يرجع فى أصله إلى زوال الدافع الأصلى إلى التعاون والتكاتف والتماسك بين سكان القرية الواحدة ، فانحلت الروابط وتضعضع نظـام الادارة القروية وطغت الادارة المركزية العـامة عليه ، وظهرت على الجملة مشكلة اجتماعيـة هى من أعصب ماتعرض له ريف مصر خلال تاريخه الطويل . وقد يكون طريق الاصلاح ، إذا مانحن فهمنا علة الداء على هذا الوجه ، أن نعمد إلى القرية فنعوضها عما فقدت من دوافع التعـاون ، ونضع مشروعات قروية تدفع بأهل القرية الواحـدة إلى التضامن والترابط والعمل المشترك فى إقامـة مركز اجتماعى للقرية مثلا أو فى ردم البرك أو تحقيق مشروعات أو مرافق قروية مشتركة أو نحو ذلك . ويكون انجاز هذه الأعمال بمثابة وازع إلى الوحدة يقوم مقام ذلك الوازع الذى اختفى وتوارى بدخول نظام الرى الدائم إلى مصر .

ثم مثال آخر للنظم الاصيلة العريقـة التى يصعب تغييرها تغييراً شـاملا وسريعاً ، والتى تخفق فى وجهها التشريعات والقوانين المستحدثة مهما اشتدت تلك هى العادات الجنائزية التى ترجع فى مصر الى العهد الفرعونى أو حتى إلى ماسبقه من عهد ماقبل الاسرات . ولقد حاول المصلحون أن يتناولوها عن طريق التشريع العنيف فلم ينجحوا فى ذلك الا بقدر يسير . ولعل من الطريف أن نذكر أن القضاء على هذه العادات الجنائزية لم يبلغ غاية النجاح حتى بين الفئة المثقفة والمستنيرة استنارة عالية فى مصر . وغاية ماحدث أن تلك العادات قد اتخذت

صورة مخففة ومهذبة ، فصارت نعياً يطول فى الجرائد على نحو لايكاد يكون له مثيل فى غير صحف مصر ، أو انقلبت إلى حفلات تأبين طويلة ومؤثرة ، هى فى واقع الامر استمرار معدل للعادات الجنائزية التى جرى عليها شعب مصر خلال العصور .

كل هذا عن النظم الاصيلة فى البيئة المصرية . ولكن هناك نظما أخرى كانت دخيلة عليها ومستعارة من الخارج . وهذه انما دخلت مصر فى أوقات مختلفة ، وكثيرا ماحل بعضها محل بعض . واذا نحن رجعنا الى فترات التحول فى تاريخنا المصرى ، فاننا نجد أن هذه النظم الدخيلة كان يسهل على المجتمع دائماً أن يغيرها أو أن يستبدل بعضها ببعض . ولذلك فاننا نستطيع ، إذ نرسم خطط الأصلاح الحديث ، أن نتناولها بالتجديد واثقين أن المجتمع يتقبل ذلك دون غضاضة أو ممانعة . وقد يكفى أن نذكر هنا من أمثلة هذه النظم حجاب المرأة ، فهو غريب عن البيئة المصرية ، ويكاد ألا يكون له أثر فى البيئة الريفية . فلما بدأت حركة الاصلاح من هذه الناحية نجحت ، وكان نجاحها فى صورة سريعة ظاهرة ، تكاد تشبه الثورة من بعض الوجوه . وكذلك الحال فى بعض النظم المصرية المستحدثة ، فهى كلها يمكن التحوير والتعديل فيها فى صور شاملة سريعة .

ولكننا قبل أن نختتم يصح أن نشير الى أمثلة أخرى من بلد كالعراق . وقد تبين من الدراسة المبدئية أن النظم الاصيلة فى العراق ، على العكس من مصر ، قليلة نسبيا ، ولا تتمثل بوجه غالب الا فى بعض بقاع العراق الادنى ، فى أرض سومر القديمة وفى بلاد المستنقعات التى يصعب التوغل فيها واقتحامها بجماعات ونظم جديدة من الخارج . أما باقى العراق فتكاد تغلب عليه النظم الدخيلة والمستعارة من المناطق المجاورة . وربما كان مرجع ذلك الى ان

العراق يختلف عن مصر فى أن الجهات المحيطة به ليست صحراوية قاحلة قليلة السكان كما هى الحال فى صحارى مصر ، وانما هى مناطق رعاة خرجت منها الهجرات بكثرة ، واستوطن أهلها بلاد العراق فى موجات متلاحقة . ولكن الشىء الطريف أن مصادر الهجرة إلى العراق متعددة . فهناك بادية الشام وبلاد العرب وأهلها من الساميين فى ثقافتهم ونظمهم الاجتماعية ، وهناك هضبة كردستان فى الشمال وأهلها لهم ثقافتهم وحياتهم الخاصة ، ثم هناك هضبة ايران فى الشرق ولأهلها نظمهم وتقاليدهم وتاريخهم الخاص . ولذلك فان من يريد تتبع نظم العراق الدخيلة ، ومن يريد بصفة خاصة دراسة حياة القبائل البدوية والمستقرة استقراراً جزئياً ، سيجد أنها نظم معقدة متباينة بحسب الجهة التى نزحت منها كل قبيلة . ولا يمكن أن يتناول المصلح الاجتماعى مثل هذه النظم عن طريق وضع تشريعات عامة وشاملة تنطبق على جميع هذه الالوان من النظم القبلية فى العراق . ولذلك كله فان تجربة تحضير البدو وتوطينهم واستقرارهم تحتاج إلى دراسة وافية ومحلية لكل جهة يراد أن يتناولها الاصلاح فى أرض العراق ، خارج المنطقة التى استقر بها السكان منذ أمد بعيد .

تلك كلها أمثلة ومختارات أردنا بها أن نكشف عن أهمية هذا الاتجاه الخاص فى دراسة المجتمع قبل ان نعالج مشكلاته الاجتماعية أو نتصدى لتناولها بالاصلاح . وقد تبين لنا ، فيما أرجو ، كيف ان دراسة التاريخ الاجتماعى والحضارى العام للمجتمع فى منطقة كالشرق العربى هى ضرورية لنفهم مايسوده الآن من نظم ، بعضها صالح وقوى ، وبعضها الآخر يكاد يتصدع امام ضغط الاحداث وتطورها فى عهدنا الحديث . وظاهر أن دراسة المجتمع واوضاعه التاريخية تعيننا فى تفهم الحالة الراهنة من جهة ، وفى رسم خطط الاصلاح على اساس من الاستنارة والتوجيه السليم من جهة ثانية . ذلك ان تلك الدراسة ترد النظم الى اصولها وتنير السبيل امامنا ، لاسيما اذا ما نحن عنينا بدراسة

فترات التحول والتغيير الاجتماعى فى الشرق وتاريخه . فقـد لاتختلف حالنـا الآن عما مر به الشرق فى بعض أدواره من تحول وتغير أمام اختلاف الظروف وضغط العوامل الخـارجية التى أتته من العالم المجاور فى أحيـان كثيرة ، والتى أتته حتى من العالم البعيد فى بعض الأحايين .

إن محاولة الاصلاح الاجتماعى أمر خطير لايجوز أن يكتفى فيه بمجرد النقل عن الغير ، أو الدراسة العارضة التى تتناول المظاهر والاعراض دون العلل والاسباب . وليس يكفى فى بلدان الشرق أن ندرس الحـالة الراهنة ثم نضع الخطة لاصلاحها ، لأننـا فى هذه الحالة قد لا نتعدى القشرة الى النواة ، وقد ينتهى الامر إلى نكسة تضعضع الامل عند من يقومون على الاصلاح وتضعف الثقة عند من توضع الخطط لخدمتهم واصلاح حالهم . ولذلك فقد لا يكون كثيراً أن نطالب فى الشرق بضرورة الاهتمام بدراسة الاوضاع التاريخية والثقافية لنظمنا الاجتماعية القديمة والمستحدثة ، وأن تكون تلك الدراسـة أساساً لما يوضع للاصلاح من خطط .

ولعله لايكون بعيداً ذلك اليوم الذى يظهر فيه إلى حيز الوجود معهد أو مكتب لدراسة هذه الاوضاع دراسة علمية دقيقة وعميقة ، تقوم عليهـا هيئة من الباحثين و المختصين ، وتشرف عليهـا احدى الجامعات العلمية الحديثة فى مصر أو فى إحـدى بلدان الشرق العربى ، أو تشرف عليهـا اللجنة الثقافية للجامعة العربية بالذات . وتكون هذه الدراسة تمهيداً طيباً لمشروعات الاصلاح .

ولئن نجح هـذا المؤتمر فى إثارة الاهتمام فى الشرق العربى بمثل هذه الدراسـات العلمية العميقة وفى توجيه النظر إلى ضرورة الأخذ بأسباب التوسع فيها على نطاق أكثر شمولا مما تم فى هذه البداية المتواضعة ، فانه يكون قد أدى بعض رسالته ، وخطا خطوة علمية فى سبيل تحقيق الغرض من عقد هذه الحلقة من الدراسات الاجتماعية فى الشرق العربى .

سليمان حزين

تقـــــرير

عن أعمال المؤتمر الجغرافى الدولى السادس عشر - ابريل ١٩٤٩
واشتراكى فيه ضمن وفد مصر الرسمى ونيابة عن جامعة فاروق الأول

سليمان حزين

أستاذ الجغرافيا بكلية الآداب

يرتب الاتحاد الجغرافى الدولى الذى تشترك مصر فيه منذ أكثر من ربع قرن مؤتمرات دولية كان من أهمها المؤتمر الدولى الذى انعقد بمدينة القاهرة فى عام ١٩٢٥ وذلك فى مناسبة احتفال الجمعية الجغرافية الملكية المصرية بعيدها الخمسينى وتلاه مؤتمر كمبردج فى عام ١٩٢٨ ثم باريس ١٩٣١ ووارسو ١٩٣٤ وامستردام ١٩٣٨ ، ثم انعقد المؤتمر الأخير فى بلاد البرتغال (لشبونة) ١٩٤٩ . وقد سبق لى أن حضرت هذه المؤتمرات بانتظام ابتداء من مؤتمر باريس ، وحضرت هذا المؤتمر الأخير ضمن أعضاء وفد مصر .

وقد مثلت فى هذا المؤتمر ٣٤ دولة وبلغ عدد الأعضاء أكثر من ٧٠٠ عضواً من بينهم أربعة مصريون يؤلفون وفداً رسمياً مثلت فيه جامعتا فاروق الأول وفؤاد الأول ووزارة المعارف والجمعية الجغرافية الملكية .

وكانت هناك ثلاث غايات أساسية للمؤتمر : أولاها تجديد الاتصالات العلمية والشخصية بين المشتغلين بعلم الجغرافيا بحثاً وتعليما ، وذلك بعد أن

انقطعت الاجتماعات منذ أحد عشر عاماً وانقطعت الصلات أو كادت تنقطع حتى بالمراسلة خلال سنى الحرب الطويلة . وثانيتها استعراض نواحى التقدم الحديثة فى علم الجغرافيا والأبحاث الجغرافية مما تم خلال السنوات الأخيرة فى ميدانى الجغرافيا الطبيعية وما يتصل بها من رسم الخرائط وخلافه والجغرافيا البشرية وما يتصل بها من استغلال اقتصادى لموارد البيئة ، وذلك بتنظيم سبعة أقسام للمؤتمر تعقد فيها حلقات للدراسة ولإلقاء البحوث الجديدة باسم البلدان والمعاهد المختلفة ، كما تجتمع بها اللجان العلمية التى تكلف دراسة مسائل معينة بالذات . والغاية الثالثة للمؤتمر هى القيام بدراسات عملية تطبيقية فى جغرافيا بلاد البرتغال ذاتها ، على نحو ماجرى عليه العمل منذ مؤتمر القاهرة ، إذ أصبح من المتفق عليه فى هذه المؤتمرات الجغرافية أن يعهد إلى جغرافيي البلاد التى ينعقد بها المؤتمر فى اختيار بعض مشكلات جغرافية طبيعية أو بشرية فى بلادهم يدرسونها ثم يعرضون نتائج هذه الدراسة على المؤتمرين من مختلف البلدان وتناقش نتائج الأبحاث مناقشة علمية فى الطبيعة ينتهى بعدها الباحثون إلى تسجيل آرائهم وتكون هذه مناسبة طيبة يتعاون فيها الجغرافيون ويقارنون وسائلهم الدراسية بعضها ببعض ويحتكون فيها بغيرهم من الباحثين فى ميدان عملى مشترك وبصورة منظمة .

وقد حاولت من جهتى خلال المؤتمر أن أفيد من كل من هذه النواحى ، وأن أجعل مشاركتى فى أعمال المؤتمر تتجه إلى الناحيتين العلمية والقومية جميعاً . فجددت اتصالاتى بمن كنت أعرفهم من الجغرافيين الذين سبق ان التقيت بهم فى المؤتمرات السابقة ، واتصلت بالكثير من الجغرافيين المحدثين الذين لم يسبق لى أن التقيت بهم . ورتبت فى هذه الحالات جميعها تقريباً نظام استمرار الاتصال عن طريق تبادل المطبوعات وغير ذلك . كذلك اتصلت بعدد غير قليل من ممثلى الهيئات العلمية بالخارج ، ورتبت معهم تبادل المطبوعات

بين هيئاتهم وبين كلية الآداب فى جامعة فاروق الأول وكذلك بينهم وبين الجمعية الجغرافية الملكية المصرية والمجمع العلمى المصرى. وفى هذا كله ماأرجو أن يعين على مداومة اتصالنا بالخارج ومتابعة الحركة العلميـة والتعليمية فيما يتصل بمادة الجغرافيا لاسيما وأن من غير الميسور لنا دائماً أن نحصل على المطبوعات أو أن نطلع على أوجه التجديد العلمية بالخارج أولا بأول.

وأما عن أعمال المؤتمر فقد شاركت فيها مشاركة علمية وعملية. إذ ألقيت بحثين علميين جديدين عن الدراسات التى قمت بها خلال السنوات الأخيرة وباسم جامعة فاروق الأول وكان موضوعهما:

(1) Recent Scientific Researches in the Fayum and N' Sinai.

(2) La depression de Fayum un exemple d'erosion éolienne.

وقد ألقيا بقسم الجغرافيا الطبيعية بالمؤتمر، وكان أولهما باللغة الانجليزية وثانيهما باللغة الفرنسية وتلت كلا منهما مناقشة علمية أثبتت كلها فى محاضر المؤتمر. وقد سبق لسكرتارية المؤتمر أن نشرت على الأعضاء خلاصة كل من البحثين وسينشر النص الكامل والمناقشة التى تلتهما فى تقرير المؤتمر النهائى.

وقد ترتب على البحث الأول أن اهتم قسم الجغرافيـا الطبيعيـة بالمؤتمر بموضوع دراسة الأنهار وتطورها وكانت للمؤتمر لجنة خاصة بدراسة المدرجات النهرية تعمل منذ عام ١٩٢٨ واتجهت النية إلى إلغائها هذا العام. ولكن الرأى تغير خلال المناقشة التى تلت البحث الذى ألقيته، وتبينت للمؤتمرين ضرورة استمرار أعمال هذه اللجنة مع إعادة تأليفها على وجه جديد يحقق الفائدة العلمية فى ضوء مايجرى الآن من أبحاث فى بعض المناطق الصحراوية والمدارية. وفعلا قبل المؤتمر هذا الرأى فى جلسته الأخيرة، وأعيد تأليف اللجنة على أن أكون أحد أعضائها. وبذلك مثلت مصر فى إحدى لجان المؤتمر الفنية الدائمة

لأول مرة إذ أن اللجان الدائمة لاتؤلف عادة إلا من عدد محدود من الاخصائيين فى بعض نواحى البحث العلمى . وستستمر اللجنة فى عملها على أن تقدم تقريراً نهائياً إلى المؤتمر الجغرافى القادم عام ١٩٥٢ . ونظراً لأن اللجنة قد تضطر إلى الاجتماع خلال هذه الفترة فقد حصلت على موافقة اللجنة التنفيذية للمؤتمر على أن يكون انتقالى إلى هـذه الاجتماعات إن هى تمت على حساب الاتحاد الجغرافى الدولى .

وأما البحث الثانى فقد أجملت فيـه النتائج العلمية التى حصلت عليهـا أثناء عملى باسم جامعة فاروق الأول فى منطقـة الفيوم فى شتـاء عام ٤٧ / ١٩٤٨ وهى نتـائج تلقى ضوءا جديداً على عوامل النحت وفعل الرياح فى المنـاطق الصحراوية وفى ظروف منـاخية جافة ، كما أنها تحـدد تاريخ منخفض الفيوم وحفره بفعل الرياح تحديداً يخالف ماجرى عليه الرأى من قبل كنتيجة لأبحاث قامت بها بعثة علمية من جامعتى اكسفورد وشيكاغو منـذ نحو عشرين عاما . وقد أوصى قسم الجغرافيا الطبيعية من المؤتمر بنشر النتائج العلمية المفصلة لهذه الأبحاث ومقارنتها ببعض ماقام به الباحثون الفرنسيون فى شمال أفريقية فى كل من معهد الدراسات الصحراوية بالجزائر والمعهد الشريفى بمراكش . وقد كان من حسن الحظ أن استطعت فى طريق العودة من لشبونة أن أقضى أسبوعاً ببلاد الجزائر قمت فيه بدراسة مقارنة ستفيد كثيراً فى استيضاح بعض النقط والمسائل الواردة فى بحثى الذى ألقيته بالمؤتمر ، وذلك قبل إعداده نهائياً للنشر فى الأوساط العلمية .

أما عن أوجه نشاطى الأخرى فى المؤتمر فقد شاركت فى الدراسات العملية فى الطبيعة مع الجغرافيين البرتغاليين والفرنسيين وغيرهم لاسيما فى شمال البرتغال وقد أفدت كثيراً من طرائق بحثهم ، لاسيما الجانب الذى يتصل بالجغرافيا

الطبيعة ويقع على هامش البحث الجيولوجى . وأرجو أن يكون لذلك أثره فيما أقوم به من أبحاث علمية فى المستقبل . كذلك استطعت أن أجمع مجموعة طيبة من الصخور والعينات أحضرتها معى لتضاف إلى مجموعاتنا الدراسية بكلية الآداب .

كل هذا عن الناحية العملية الخالصة . فأما عن الناحية التنظيمية والإدارية بالمؤتمر فقد حضرت كل الاجتماعات العامة التى نوقشت فيها شئون المؤتمر ، وكنت على صلة وثيقة باللجنة التنفيذية فتقدمت إليها ببعض المقترحات التى أخذ بها فيما يختص بتنظيم عمل المؤتمر القادم والبحوث التى يصح أن يتناولها .

هذا وقد تقرر أن ينعقد المؤتمر القادم بالولايات المتحدة فيبدأ فى مدينة نيويورك ثم ينتقل إلى إحدى مدن الغرب . وتحدد لانعقاده صيف ١٩٥٢ وهو يوافق احتفال الجمعية الجغرافية الأمريكية بعيدها المئوى . وقد ظهر اتجاه فى المؤتمر إلى أن تتخذ البحوث الجغرافية المقبلة والتى تعد للمؤتمر القادم اتجاهاً علمياً يختلف بعض الاختلاف عما جرى عليه العمل حتى الآن من اكتفاء كثير من الجغرافيين فى إبحاثهم بالناحية العلمية النظرية دون التطبيق على الناحية البشرية من حياة الإنسان على وجه الأرض . وهذا الاتجاه الجديد يجارى النزعة الأمريكية الحديثة فى البحث الجغرافى .

وقبل أن أختتم هذا التقرير أرى لزاماً أن أشير إلى مسألتين ، أولاهما تتصل بتنظيم بعض البحوث الجغرافية العملية فى مصر خلال السنوات الثلاث القادمة حتى يمكن التقدم بها باسم مصر إلى المؤتمر القادم . والثانية هى احتفال الجمعية الجغرافية الملكية المصرية بعيدها الخامس والسبعين فى العام القادم .

أما المسألة الأولى فقد كان لى شرف إثارتها مع بعض الباحثين الفرنسيين ،

لاسيما من يعملون منهم فى شمال أفريقية وهو ميدان يشبه الميدان المصرى فى كثير من الوجوه . وقد استطعت خلال اتصالى بعدد من الباحثين فى المؤتمر وكذلك خلال زيارتى للجزائر فى طريق العودة أن أتبين ماترمى إليه الدراسات هناك من محاولة الكشف عن تطور بعض معالم الجغرافيا الطبيعية فى شمال أفريقية ومناطقها الصحراوية خلال عصر البلايستوسين وهو أحدث الأعصر الجيولوجية ، وذلك نظراً لأن دراسة هذا العصر ضرورية لتفهم الحالة الجغرافية الراهنة ، بل وتفهم البيئة الجغرافية الطبيعية من حيث تكوينها زمن حيث أثرها فى الحياة البشرية . وفى رأيى أن تتابع مصر مثل هذه الدراسة فى كل من وادى النيل والصحارى التى تكتنفه من الجانبين ، وأن تجمع فى ذلك بين البحث الطبيعى والبحث الأثرى ، حتى يمكن أن نخرج بصورة واضحة عن تطور البيئة المصرية إبان الأدوار الأولى لنشأة المدنية فى شمال شرق أفريقية وفى مصر بالذات ، ونضيف بذلك إلى العلم والبحث العلمى فى ميدان يكاد الإنتاج فيه أن يكون مضموناً . ولعل جامعة فاروق الأول مستطيعة أن ترسم خطة البحث الجغرافى والأثرى على هذا الأساس وفى ميدان عصر البلايستوسين بالذات . وليس هذا مجال الإفاضة فى رسم خطة الدراسة فقد يكون الأولى أن يتم ذلك على يد لجنة تؤلف خصيصاً لهذا الغرض .

وأما المسألة الثانية فقد كان لى شرف التحدث فيها مع الأستاذة لى فيفر أستاذة الجغرافيا بجامعة لوفان والسكرتيرة العامة للاتحاد الجغرافى الدولى (وقد عينت أخيراً وكيلة للاتحاد) وذلك بعد أن كلفتها اللجنة التنفيذية بصفة غير رسمية أن تبحث احتمال احتفال الجمعية الجغرافية الملكية المصرية بعيدها الخامس والسبعين . فقد كان هناك مشروع لدعوة المؤتمر للانعقاد بمصر فى

هذه المناسبة واتصلت الجمعية الجغرافية الملكية باللجنة التنفيذية لهذا الغرض ولكن وقوع تاريخ الاحتفال فى عام ١٩٥٠ جعل ذلك غير متيسر وقد سبق لى ، تحقيقاً لإشارة سامية كريمة ، أن تقدمت إلى مجلس إدارة الجمعية الجغرافية الملكية بمشروع برنامج لاحتفال علمى يستمر بضعة أيام تلقى فيه بعض البحوث العلمية الخاصة باستجلاء معالم جهود مصر فى الكشف عن منابع النيل وفيافى أفريقية الشرقية فى عهد ساكن الجنان اسماعيل باشا منشىء الجمعية ، وكذلك عما تم فى السنوات الأخيرة من بحوث علمية وعملية فى مصر وحوض النيل ، كما ترتب رحلة علمية إلى بعض المناطق الدراسية فى مصر . ولا يزال مشروعى قيد البحث والعناية فى الجمعية الجغرافية الملكية ، وقد شرحت للأستاذة لى فيفر أن الأمر يستلزم موافقة الحكومة إلى جانب استعداد الجمعية من جانبها ، فاقترحت على بصفة غير رسمية أنه فى حالة ما إذا قررت مصر أن تحتفل بعيد جمعيتها احتفالا علمياً دولياً أمكن أن توجه الدعوة لحضوره إلى عدد من كبار الجغرافيين وعمداء الدراسات الجغرافية فى البلدان المشتركة فى الاتحاد الجغرافى الدولى وبذلك تتحقق للاحتفال ناحيته الدولية على خير وجه . وقد وعدت الأستاذة لى فيفر أن أبلغ رغبتها هذه بصفة غير رسمية إلى إدارة الجمعية الجغرافية الملكية . والله أرجو أن يتحقق احتفال جمعيتنا بعيدها احتفالا علميا ناجحاً ، يتناسب وما لها من مكانة خاصة فى تاريخ الاستكشافات العملية القومية التى تلقى من مليكنا المعظم حفظه الله كل رعاية وتشجيع .

سليمان حزين

أستاذ الجغرافيا بكلية الآداب

وممثل جامعة فاروق الأول فى وفد مصر الرسمى
إلى المؤتمر الجغرافى الدولى السادس عشر

مذكرة

بشأن الآثار المسيحية التى أمكن تحقيقها فى أثنـــاء رحلة قسم الآثار للموسم ١٩٤٩

كان لرحلة قسم الآثار العلمية فى هذا العام إلى جانب ناحية العاديات المصرية ودراستها وقراءة ما عليها من النصوص طابع فرعى جديد هو البحث عن مواقع الآثار التابعة لعهد متأخر فى فجر العصر الوسيط أو على وجه أخص الآثار المسيحية أو الرومانية والبيزنطية التى اختلطت أحياناً اختلاطاً شديداً بالآثار المصرية القديمة ، واعتنى علماء الاجيتولوجيا بدراسـة القديم وتنظيفه مما هو أحدث منه ، فكان من جراءذلك أن ظلت الآثار المسيحية بالرغم من أهميتها الفائقة فى القرون الأولى الميلادية نسياً منسياً .

وقد وفقنا فى هـذه الرحلة بصفة مبدئية إلى تحقيق بعض المواقع والعمائر الهامة من العصرين الرومانى والبيزنطى نجملها فيما يلى :

منطقة أسوان

١) دير القديس سمعان الشهير بدير أنبا هدره فى الصحراء الغربية على مسيرة نصف ساعة من البر الغربى ـ سـابق للفتح العربى وجاء تخريبه على يد صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٧٢ م. وكثير من أجزائه الأساسية قائم إلى اليوم زارها الطلاب وحاضرناهم فيها . وكان تخريب هذا الدير فى أثنـاء الصراع الذى قام بين الدولة الإسلامية المصرية ومملكة النوبة المسيحية .

٢) دير مار جرجس أو القديس جاورجيوس على شقة إحدى التلال الغربية المطلة على النيل وهو خرب ومتهدم وحيطـانه وعروشه قد وقعت فى داخله ولم يحفر فيه أحد .

٣) سلسلة من الحصون الواقعة على الجبال المتطرفة فى المناطق المتاخمة لمديرية أسوان على حافة الصحراء ، ولم نتمكن من الوصول إليها لضيق الوقت ووعورة المسالك المؤدية إليها ، والغالب أن هذه الحصون أديرة قديمة .

منطقه إسنا

بها عدد كبير من الآثار المسيحية العتيقة لأنها من المعاقل الكبرى لنشر تلك الديانة فى القرون الأولى ولقيـام كثير من آباء الرهبان من بين سكانها ـ ونحن وإن لم نستطع الوقوف على هذه المدينة لنسعى إلى زيارة ما يمكن اقتفاؤه من آثارها المسيحية ، إلا أننا نستطيع أن نسجل أسماء بعض الأديرة التى علمنـا بوجودها بطريقة ثانوية .

١) دير الشهـداء
٢) دير الفـاخورى
٣) دير أبى سـيفين
٤) دير مار جرجس

منطقه الأقصر

وفيها نوعان من المؤسسات المسيحية ، الأول مختلط بالآثار الوثنية القديمة

التى أعيد إستعماله بعد إعتناق المسيحية ، والثانى عبارة عن مؤسسات وأديرة مسيحية جديدة مستقلة . أما النوع الأول فيشمل :

١) إستعمال البهو الداخلى وقدس الأقداس من معبد الأقصر وتحويله إلى كنيسة ولا زالت آثار الرسوم المسيحية بالألوان العتيقة واضحة على جدران قدس الأقداس يكاد يتضح من بينها رسم الشاروبيم والصاروفيم ذوى الستة أجنحة .

٢) بفناء معبد الأقصر من ناحية الغرب قرب شاطىء النيل أسس كنيسة بيزنطية بعض أعمدتها لا يزال قائماً ويقال إنها من عهد الامبراطور جستنياك وهذا جائز إذا حكمنا على طبيعة عمدانها والمتخلف من رؤوس عمدانها وأسلوب البناء العام .

٣) الدير البحرى بالبر الغربى وهو الذى ابتنته الملكة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة وقد أستعمل فعلا كدير فى العصر المسيحى ، والجناح الأعلى إلى ناحية الجنوب يشمل عدة مقاصير وحيطان تكتظ اكتظاظاً بالنقوش القبطية والصلبان المسيحية التى تختلط إختلاطاً بالنقوش والرسوم القديمة .

٤) دير المدينة وهو من مخلفات الأسرات القديمة المتأخرة ويقال إنه أيضاً أستعمل كدير مسيحى .

٥) وبمعبد الكرنك بعض أماكن إستعملها النساك المسيحيون من العهد الأول لاقامتهم من بينها فجوة فى مبانى أحد بيلونات تحتمس الثالث وحتشبسوت بها قبلة تدل دلالة واضحة على أن أحد الرهبان إتخذ منها قلاية يتعبد فيها .

ومن أمثلة النوع الثانى أى العمائر المسيحية البحتة :

١) دير أنبا فويبامون بالبر الغربى فى سفح الجبال النائيه ويقال إن بناءه كان معاصراً لمؤسس حياة الشركة أو حركة الديرية المصرية القديمة القديس باخوميوس فى القرن الرابع الميلادى ـ وقد أجريت فيه حفريات على جانب كبير من الأهمية بواسطة جمعية الآثار القبطية ، وقد جمعت البعثة المكلفة بذلك عدداً هائلا من النقوش القبطية كما كشفت عن أساس الدير ، واستخرجت من آثاره عدة صناديق بها بعض « موميات » الرهبان والشقافة والخشب والصلبان وغير ذلك .

٢) دير محارب بالقرب من مدينة هابو وهو لا يزال قائماً فى جملته برعاية أحد قسوس القبط ، وقد زرناه ووجدنا أنه يتكون من كنيسة قديمة يرجع تاريخها إلى عهد الشهداء فى حكم الامبراطور دقلديانوس بالقرن الثالث الميلادى والجزء الأحدث والأكبر المضاف إليها يرجع إلى عصر متأخر نسبياً والكنيسة معروشة بالقباب ويتبعها رحبتان غير معروشتين لايواء الحجاج ومطاياهم وعند مدخله مصطبة كبيرة للجلوس وعلى يسار المدخل الفرن الخاص بعمل الخبز المقدس والقربان ويحيط بالدير حائط كامل ـ وقامت بعثة أمريكية بالحفر فيه .

وهنالك نوع ثالث لابد من تسجيله أيضاً هو تلك المغاور والصوامع التى تعدّ بالمئات على مرتفعات مختلفة فى جبال الأقصر الغربية من وادى الملوك ووادى الملكات وما بينهما من قبور الأشراف ، وبعضها لا شك كان عبارة عن قبور قديمة نحتت فى الصخر ، ويغلب ظنى أن عدداً كبيراً منها استعمله الرهبان المتوحّدون والنساك فى العصر المسيحى الأول من الرهبانية القديمة قبل نشأة حياة الشركة وتأسيس الأديرة النظامية .

كذلك وصل إلى علمى أنه فى البر الشرقى من الأقصر توجد بعض المبانى القديمة على حافة الوادى والصحراء لم نستطع الوصول إليها فى هذه المرحلة المبدئية لبعدها ووعورة مسالكها وماتتطلبه من الاستعداد وتستلزمه من النفقات ومن بينها على وجه أخص دير فى حالة جيدة اسمه «دير الشايب».

منطقة الأقصر ـ نقادة :

هذا وقد تمكنا بمساعدة حضرة مفتش عام مصلحة الآثار بمنطقة الأقصر من القيام برحلة خاطفة فى المنطقة الأثرية الواقعة عند سفح التلال الغربية التى تحيط بالوادى والأرض الزراعية الممتدة على جانب النيل ، وقد تبينت لنا أهمية هذه المنطقة الفائقة فى العصر المسيحى الأول ، فقد أحصينا من المؤسسات التى لازالت أثارها منظورة ستة أديرة هى :

١) دير الملاك ـ وبجواره مذبح فى العراء.
٢) « القزّاز .
٣) « أبو حطب .
٤) « المجمع .
٥) « المقْدِس .
٦) « أبى الليف .

وهذه هى الأسماء المعروفة بها تلك الأديرة بين سكان المنطقة وجميعها من القرون المسيحية الأولى وأغلب الظن أنها كانت من المؤسسات الباخومية التى خضعت فى القرنين الرابع والخامس لقوانين القديس باخوميوس الشهيرة ـ

ويلوح أن الأديرة الستة التى سجلنا أسماءها هنا ليست هى كل مافى هذه المنطقة وإنما يوجد غيرها مما يمكن الكشف عنه بالبحث والتنقيب ومقارنة الأصول التاريخية المسيحية بتلك المناطق ودراستها دراسة دقيقة .

والواقع أن هذه المؤسسات المسيحية القديمة التى كانت مهملة كل الاهمال حتى أنها لم تظفر بكثير أو قليل من عناية الأثريين أو مصلحة الآثار بدأت تستلفت النظر بدليل الحفريات التى قامت بها جمعية الآثار القبطية فى دير أنبا فويبامون بمنطقة الأقصر الغربية . ودليل آخر فى هذه المنطقة بالذات على مقربة من نقادة حيث يقوم المتحف القبطى بالاشتراك مع هيئة أجنبية بحفريات فى دير القزاز تمخضت عن كشوف لها قيمتها الأثرية والتاريخية ، فقد عثر المنقبون فيه على كميات من البردى والشقافة المكتوبة والصلبان والأخشاب المنقوشة والأقمشة وغير ذلك مما سيصير إرساله بواسطة تفتيش الآثار إلى المتحف القبطى عن طريق المصلحة فى القريب العاجل لتبويبه وترتيبه وتجهيزه للعرض والدراسة .

هذا قليل من كثير تمكننا من تسجيله على هامش رحلة قسم الآثار . ونأمل أن تتاح لنا الفرصة من الاضافة إليه حتى يكتمل ـ والواقع أن منطقة الصعيد الأعلى أى من الأقصر إلى أسوان مع مالها من الأهمية فى هذه الناحية الأثرية إلا أنها تعتبر من الطراز الثانى أو المرتبة الثانية إذا قيست ـ على مانظن ـ بما فى منطقة قنا التى تعتبر مهد الحركة الديرية المعروفة بحياة الشركة من نظام وقوانين القديس باخوميوس فى القرن الرابع وكذلك منطقة سوهاج وأخميم التى كانت خاضعة لنظام وقوانين الأنبا شنودة فى القرن الخامس الميلادى وأهم أديرته الشهيرة فى جميع كتب التاريخ والآثار الدير الأبيض والدير الأحمر .

ونحن نعلم أن المغفور له الأمير عمر طوسون كان قبيل وفاته عليه رحمة الله

قد إهتم باحصاء هذه الأديرة وبدأ فعلا فى جمع مادة البحث عنها توطئة لاجراء بعض الحفريات فيها، ولكن المنيّة للأسف لم تمهله؛ وعلى ذلك بقى العمل الذى بدأه دون أن يكتمل، ونود إن شاء الله أن تكون كلية الآداب بجامعة فاروق الأول هى السابقة لاتمام هذه المهمة شيئاً فشيئاً بقدر وإن يكن متواضعاً إلا أنه بداية لابأس بها وأقل نتائجها هى توجيه أنظار طلّاب قسم الآثار لهذه الناحية المهملة من الدراسات الأثرية، حتى إذا ما تخرجوا وشغلوا وظائف التفتيش بمصلحة الآثار استفادوا وأفادوا من ملاحظة الآثار المسيحية إلى جانب الآثار الفرعونية.

وهنالك ملاحظة عامة جعلناها موضع توجيه لأنظار الطلّاب عند زيارة المعابد القديمة ومشاهدة التماثيل الوثنية القديمة وما أصابها من التلف والتشويه إذ أن ذلك لم يكن من عاديات الزمن فحسب بل كان أثراً من آثار حملات التخريب المسيحية بقيادة الرهبان والمبشرين الذين قصدوا من ذلك القضاء على آثار الوثنية البائدة بتحطيم تماثيل الآلهة والملوك القدماء حتى أنه يندر أن نجد أحدها إلا وقد شُوّه وجهه تشويها.

وفى الختام يتضح لنا أن آثار المسيحية التى بدأت تستلفت أنظار البحاثة والمنقبين والحفارين من الاجانب والمصريين جديرة بكل عناية وأن الحفر بين جنباتها ليس وقتاً أو مالاً مضيّعاً.

عزيز سوريال عطيه

٥/ ٤/ ١٩٤٩